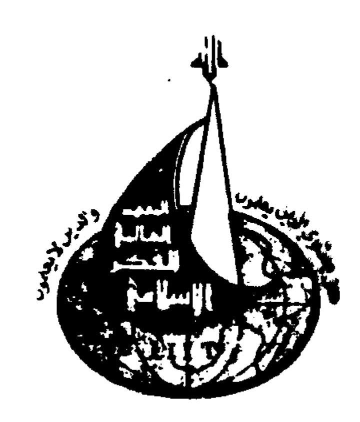
وعلم آدم الأسماء كلها

محمود فريع الدرداش

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد تعبر عن آراء واجتهادات مؤلفيها



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

وعلم آدم الأسماء كلها

محمود فرج الدمرداش

المعهد العالمى للفكر الإسلامى
القاهرة
١٤١٧هـ / ١٩٩٦م

(سلسلة أبحاث علمية ؛ ١٠)

المعهد العالمى للفكر الإسلامى
٢٦ب- ش الجزيرة الوسطى - الزمالك - القاهرة - ج. م . ع

بيانات الفهرسة أثناء النشر - مكتبة المعهد بالقاهرة .

الدمرداش ، محمود

وعلم آدم الأسماء كلها / محمود فرج الدمرداش .-ط١. - القاهرة : المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ١٩٩٦ .

٦٣ ص ، سم . - (سلسلة أبحاث علمية ؛ ١٠)

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية .

تدمك X -٨٤ - ٥٢٢٤ - ٩٧٧ .

١- القرآن - تفاسير حديثة

أ- العنوان ب- (السلسلة)

رقم التصنيف : ٢٢٧,٦٥

رقم الإيداع : ١٠٥٥٥ /١٩٩٦ .

المحتويات

تصدير

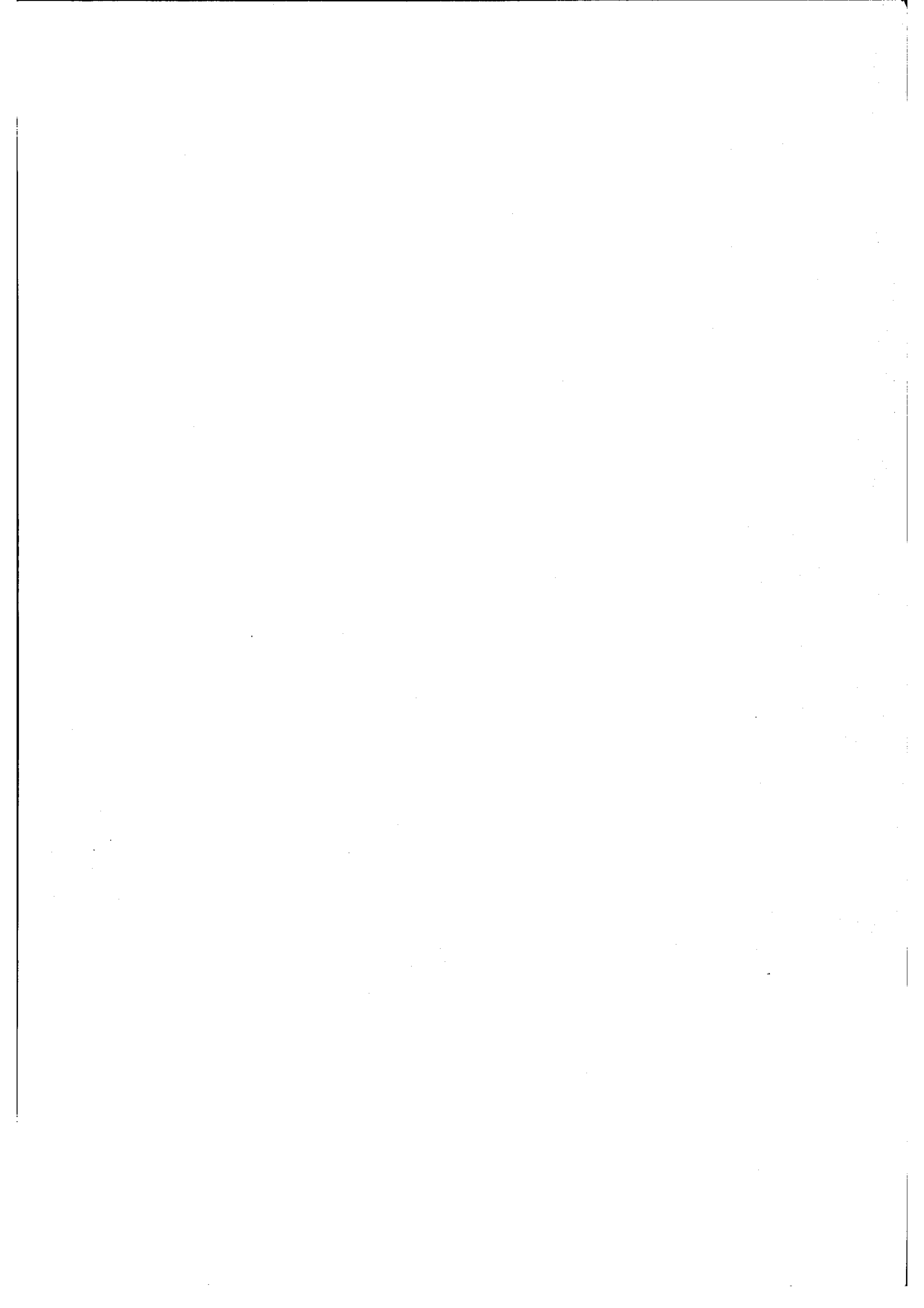
الجمع بين القراءتين ، قراءة الكتاب المسطور والكون المنظور ، قراءة الوحى والوجود من أهم أهداف قضية إسلامية المعرفة ، إنها ليست إلا إعادة القراءة المرة تلو المرة إعمالاً لما فى اسم "القرآن" من ضرورة تكرار فعل القراءة وتفصيلها ، وإرساءً لتحريك معنى التدبر بالقراءة المتأنية الواصلة بين الوعى والسعى ، والعلم ، والعمل ، والنظر والفعل ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ وهذا الجمع ليس مجرد الجمع الميكانيكى بل هو جمع يحرك القراءتين صوب التلاقى والتلاقح والتفاعل والجدل .

إن الجمع بين القراءتين ليس هو فعل القراءة بقصد ما أسمى بالإعجاز العلمى للقرآن، وشيوعه فى صورة البحث عن أصول النظريات العلمية فى القرآن ، فإن هذا البحث ضمن هذه المناطق غير مأمون العواقب ، والجمع بين النص الثابت من ناحية وما هو متغير (النظريات العلمية) من ناحية أخرى لابد أن يرتبط بمنهج قويم يحرك أصول القراءة الواعية ، لا مجرد قراءة تبدى آراء وتؤسس رؤى من نظرة أولى فترتبط بين نظرية علمية وآية قرآنية من غير ملاحظة وما يترتب على هذه القراءة التبسيطية الخارجة عن حد تكرار القراءة وفق منهج منضبط بما يؤدى إلى ممارسة قراءة التدبر ، فلماذا بحث من بحث ضمن مدرسة الإعجاز العلمى فى القرآن عن أصول النظريات العلمية والطبيعية والبيولوجية وتوقفوا عند هذا الحد ، و لم يشيروا من قريب أو بعيد إلى إعجاز القرآن فى المجالات الإنسانية والنفسية والاجتماعية على كثرة ما أشار القرآن إلى مثل ذلك فى آياته المحكمات ، إن منهج السنن الذى تتواصل فيه السنة الكونية بالسنن الاجتماعية والنفسية والتاريخية يعتبر بحق أحد مناطق الإعجاز التى ندر الاهتمام بها أو توجيه البحث إليها .

إننا فى هذا البحث أمام عناصر قراءة أعادت قراءة الآية مرات ، وتدبرت معانيها وسعت إلى الغوص فى مكنوناتها من دون أن تحملها مالا تحتمل أو تمر عليها مرور الكرام، إنها الآية التى تعتبر بحق مفتاح الإنسانية فعلا وفعالية ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ، إن علم الأسماء كان أهم عناصر مهمة الاستخلاف للإنسان وحمله الأمانة ، ومثلت هذه الآية نموذجاً للإعجاز القرآنى في علاقة العلم بالأسماء وبالإنسان وبمهمته ورسالته وحركته فى الكون ، هذا مانعتبره إعجازاً علمياً للقرآن لامحاولة القول بالتشابه بين نظريات علمية وآيات قرآنية من غير قراءة وتدبر تجمع بين قراءة الوحى وقراءة الوجود .

المعهد العالمى للفكر الإسلامى

القاهرة



الفصل الأول

وعلم آدم

قصة خلق آدم وهبوطه على الأرض وردت فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع، وفى سورة البقرة يوضح لنا القرآن الكريم مادار بين الحق سبحانه وتعالى وبين ملائكته ، إذ قال لهم أنه سبحانه وتعالى سيجعل فى الأرض خليفة ، فردت عليه الملائكة مستنكرين بأن هذا الخليفة سيفسد فيها ويسفك الدماء بينما هم - أى الملائكة - يسبحون بحمد الله ويقدسون له ، فالملائكة أحسوا بجسامة الأمر وأنىَّ لمخلوق أن يخلف الله فى الأرض ، وكيف سيمكنه أن يحمل الأمانة ، ويقيم الخير ويتجنب الشر ، فهذه مسئولية ضخمة ، والملائكة خدام للعرش يتصرفون بأمر الله ويسبحون بحمده ويقدسون له ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، فقال لهم الحق سبحانه وتعالى أنه يعلم مالا يعلمون .

ولكى يبرهن الحق لهم على أنه يعلم مالا يعلمون - علم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، فردوا عليه ردهم الصادق قائلين : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، فقال لآدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال لهم الحق الم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

إن هذه القصة توضح لنا أهمية الأسماء ، وعظمتها وكل منا يجد أسماء الأشياء والأشخاص والمعانى شيئا يسيرا سهلا ، لا يجد فيه صعوبة تقارن بمسائل الرياضيات ونظريات الفيزياء والتراكيب البيولوجية ، ومع ذلك فقد كانت الأسماء هو ما علمه الحق سبحانه وتعالى لآدم حتى يبرهن للملائكة أن آدم مهيؤ ليكون خليفة فى الأرض ولكى يريهم قبسا من علم الله ، لقد خصها الله بدلالة خاصة عندما علمها لآدم ، فقد قالت عنها الملائكة : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم .

سبحان الله . الملائكة أنفسهم لا علم لهم بالأسماء ، ومن الملائكة من يتحرك بين السماء والأرض موحياً بالرسالات مثل جبريل ، ومنهم من يختص بالريح مثل ميكائيل ، ومنهم من يقبض الأرواح بأمر الله ، ويضع نهاية الإنسان وهو عزرائيل ، وهؤلاء الملائكة ، اعلنوا جهلهم بالأسماء ، وكانوا فى إعلانهم هذا صادقين .

لهذا لابد وأن للأسماء دلالة خاصة وقيمة خاصة ، الأسماء التى كانت البرهان على مستوى العرش الإلهى - على علم الله وعلى قدرة آدم أن يخلف الله فى الأرض . وقد أفردنا هذا الكتيب لدراسة هذه الأسماء ، وسنبدأ إن شاء الله بتفسير قصة آدم بما فيها تعلم

الأسماء كلها كما وردت فى التفاسير المتاحة لنا ، ثم بعد ذلك نبسط القول فى تعلم الأسماء كلها وقيمة ذلك فى حياة الإنسان .

أقوال المفسرين فى تفسير الآية

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة البقرة :

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون (٣٠) وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (٣١) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (٣٢) قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٣٣)﴾ .

تفسير القرطبى :

يقول القرطبى[1] إن إذ تدل على الزمن الماضى ، وجاعل بمعنى خالق ، والخليفة يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض ، أو من كان قبله من غير الملائكة ، وخليفة بالفاء قراءة الجماعة، وإلا ماروى عن زيد بن على فإنه قرأ خليقة بالقاف ، وفى قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل أن آدم خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره ، لأنه أول رسول إلى الأرض ، فكان رسولا إلى ولده ، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا ، فى كل بطن ذكر وأنثى .

ولا خلاف بين الأئمة أن آدم إمام وخليفة يسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض﴾** (سورة ص- الآية ٢٦) ، وقوله : **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض﴾** (سورة النور- ٥٥) . والملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تسبق بالقول ، وذلك عام فى جميع الملائكة لأن قوله :**لا يسبقونه بالقول** خرج على جهة المدح لهم ، فكيف قالوا : (اتجعل فيها من يفسد فيها) فقيل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد ، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد ، ولكنهم عمموا الحكم على الجميع بالمعصية ، فبين الله لهم أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد ، فقال تطيبيا لقلوبهم (إنى أعلم مالا تعلمون) ، وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء .

---

(١) تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، كتاب الشعب ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٩٨١

وقيل أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء ، وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم ابليس في جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، وهذا ما جعلهم يتساءلون : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ .

كما قال سعيد بن جبير : إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سمى إنسان لأنه نسى ، وروى السدى عن ابن مالك عن ابن مسعود في قصة خلق آدم عليه السلام قال: فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تقبض منى أو تشيننى ، فرجع و لم يأخذ ، وقال : يارب إنها عاذت فأعذتها ، فبعث ميكائيل ، فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث ملك الموت ، فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع و لم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلط ، و لم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين -ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض- فصعد به ، فقال الله تعالى له : أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها ، فقال : أنت تصلح لقبض أرواح ولده .

ويقول القرطبي في قوله تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ، علم معناه عرف : وتعليمه هنا الهام علمه ضرورة ، ويحتمل أن يكون بواسطة ملك وهو جبريل عليه السلام ؛ وقال علماء الصوفية : علمها بتعليم الحق إياه وحفظها بحفظه عليه ، ونسى ما عهد إليه لأنه وكله فيه إلى نفسه فقال : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾ (سورة طه - ١١٥) . وقال ابن عطاء: لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة في الاخبار عنها ، ويستمر القرطبي فيقول : الأسماء هنا بمعنى العبارات فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمى ، وقد اختلف أهل التأويل في معنى الأسماء التى علمها لآدم عليه السلام ، فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها ، وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن على قال : كنت جالساً عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط ، قال ابن عباس : وعلم آدم الأسماء كلها .

ولفظ كلها يقتضى الإحاطة والعموم ، وفي البخارى من حديث أنس عن النبى ﷺ قال «ويجتمع المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم ، فيقولون أنت أبو الناس، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء» ، قال ابن منداد : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توفيقا ، وإن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلاً، وكذلك قال ابن عباس : علمه أسماء كل شىء حتى الجفنة والمحلب ، وروى شيبان عن قتادة قال: علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم

الملائكة ، وسمى كل شيء باسمه ، وأنحى منفعة كل شيء إلى جنسه ؛ قال النحاس : وهذا أحسن ماروى وهذا والمعنى علمه أسماء الأجناس، وعرفة منافعها ، هذا كذا وهو يصلح لكذا ، وقال الطبرى : علمه أسماء الملائكة وذريته وأختار هذا ورجحة بقوله : (ثم عرضهم على الملائكة) وقال ابن زيد : علمه أسماء ذريتة كلهم ، وقال الربيع بن خثعم : (أسماء الملائكة خاصة) وقال القتبى : (أسماء ما خلق فى الأرض) وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

ويقول القرطبى أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام ، والقرآن يشهد له : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ واللغات كلها أسماء فهى داخلة تحته ، وبهذا جاءت السنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : ((وعلم أدم الأسماء كلها حتى القصعة والقصيعة)) .

تفسير ابن كثير :

ويقول ابن كثير[1] : هذا مقام ذكر الله تعالى فيه - شرف أدم على الملائكة ، بما أختصه من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة ، حين سألوا عن ذلك ، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم مالا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم ، بما فضل به عليهم فى العلم فقال تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ، وقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس قال : علمه أسماء ولده إنسانا إنسانا والدواب فقيل هذا الحمار ، وهذا الجمل ، وهذا الفرس ، وقال الضحاك عن ابن عباس قال : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ، وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث عاصم ابن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس قال : علمه اسم الصحفة والقدر قال نعم حتى الفسوة والفسية ، وقال مجاهد: علمه اسم كل دابه وكل طير وكل شيء وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شيء وقال الربيع فى رواية عنه أسماء الملائكة ، وقال حميد الشامى أسماء النجوم ، وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته كلهم ، واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال (ثم عرضهم) وقد قرأ عبد الله بن مسعود (ثم عرضهن) ، وقرأ أبى بن كعب (ثم عرضها) أى السماوات .

ويرى ابن كيثر أن الصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها ، كما قال ابن عباس : (حتى الفسوة والفسية) يعنى ذوات الأسماء المكبر والمصغر ، واستشهد ابن كيثر بقول البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه :

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ، مكتبة دار التراث ، القاهرة، ١٩٨٢ .

حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده ، واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لست هنا كم ، ويذكر ذنبه فيستحى ، إئتوا نوحاً فإنه أول رسول الله بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحى فيقول أئتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناكم ، فيقول أئتوا موسى عبداً كلمه الله واعطاه التوراة ، فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ويذكر قتل النفس بغير نفس ، فيستحى من ربه ، فيقول ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه ، فيأتونه فيقول لست هناكم ، أئتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبة وما تأخر ، فيأتونى فأنطلق حتى أستأذن ربى ، فإذا رأيت ربى وقعت ساجدا ، فيدعنى ماشاء الله ثم يقال : إرفع رأسك ، وسل تُعْطَه ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حدا فادخلهم الجنة ، ثم أعود إليه فإذا رأيت ربى مثله ثم أشفع ، فيحد لى حدا فأذخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة ، ثم أعود الرابعه فأقول ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود ، هكذا ساق البخارى هذا الحديث والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام : فيأتون آدم فيقول أنت أبو الناس خلقك الله بيده ، وأسجدلك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ، ولهذا قال ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ أى المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة . وقال السدى فى تفسيره عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرض الخلق على الملائكة، وقال مجاهد : ثم عرض أصحاب الأسماء على الملائكة .

تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوى :

ويقول الشيخ محمد متولى الشعراوى[1] أن الكلام هنا لا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحدا من الخلق ، بدليل أنه قال : ﴿انى جاعل﴾ كأمر مفروغ منه ، ولكنه اعلام للملائكة، والله سبحانه وتعالى عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة، فهناك المدبرات أمرا، والحفظة الكرام ، وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة ، وتتصل بحياة هذا المخلوق الجديد ، ولكن هذا الخليفة - سيخلف من ؟ قد يخلف بعضه بعضا ، ولكن الله جعل الملائكة يسجدون لآدم ساعة الخلق،

---

(١) محمد متولى الشعراوى : "معجزة القرآن" ، الجزء الثامن ، كتاب اليوم ، جمهورية مصر العربية ، العدد ٢٥٦ - مايو ١٩٨٦ .

وجعل الكون مسخرا له ، فكأنه خليفة الله فى أرضه ، أمده بعطاء الأسباب فخضع الكون له بإرادة الله[1]، وليس بارادة الإنسان .

والله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى القرآن أنه خلق الجان قبل خلق الإنسان ، قال تعالى : ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ (الحجر- ٢٧) .

ولذا من المحتمل أنه كان هناك خلقا أفسدوا فى الأرض ، وأن الملائكة شهدوا التجربة وقاسوا عليها ، ولذا فقد استنكر الملائكة الخلق الجديد ، وظنوا أن الله سبحانه وتعالى يريد خلقا يسبح بحمده مقهورين ، و لم يكونوا يعلمون علم الله سبحانه وتعالى فى أنه يريد خلقا يأتونه طائعين مختارين ، وعدم علم الملائكة من مرادات الله هو من تمام علم الله ، وقد جعل الله بداية العلم للبشرية كلها بالأسماء ، فكما علم الله آدم الأسماء فإن أى بشر لا يستطيع أن يصل إلى العلم الذى يؤهله ليبدأ التحصيل إلا إذا تعلم الأسماء .

ثم يضرب الشيخ الشعراوى مثلا بالطفل الصغير ، أى طفل فى أى مكان فى العالم - كيف يبدأ تعليمه ؟ ، إذا كان فى المدرسة أو كان أميا فى البيت يبدأ تعليمه بالأسماء أولا ، فيقال له هذا كوب وهذا جبل وهذا رحل وهذا بيت الخ ، وبعد أن يتعلم الأسماء يبدأ فى تحصيل العلم ، ولكن بعد أن يكون قد استوعب الأسماء ، وحتى الطفل الأمى الذى لا يذهب إلى المدرسة تقوم أمه بمهمة تعليمه الأسماء ، حتى يستطيع أن يتعلم بعد ذلك كيف يمضى فى حياته العادية ، وبدون تعلم الأسماء فإن الطفل يتعثر ولا يستطيع أن يمضى ولا أن يحصل علما .

وهكذا أنبأنا القرآن بالطريقة التى حددها الله ليحصل الإنسان على العلم بداية بالأسماء .

وبعد أن علم آدم الأسماء عرضهم على الملائكة ، وطبعا لم يعرض الله الأسماء على الملائكة، وإنما عرض المخلوقات التى تطلق عليها الأسماء على الملائكة بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فالله قد عرض المخلوقات التى تطلق عليها هذه الأسماء ، ثم طلب من الملائكة أن يقولوا له الأسماء ، فقالوا سبحانك ، أى تعاليت وتنزهت عن أن يحيط بعلمك ومراداتك أحد ، قالوا معترفين بعجزهم أمام قدرة الله سبحانه وتعالى : ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ ، وكل مخلوقات الله لا علم لهم إلاما أتاحه الله لهم من العلم ، فالعلم كله يأتى من الله ، والله يكشف من علمه وقدراته فى الكون مايشاء لمن يشاء ، وكل كشف علمى فى الكون قد جعل الله له ميلادا أو موعدا يكشفه فيه للبشر ، فإن صادف مولد هذا العلم باحثا يبحث فيه كشفه الله له ، وإن لم يصادف تم الكشف بما نسميه نحن الصدفة .

---

(١) محمد متولى الشعراوى : "الله والكون" ، دار المسلم للعاصر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ .

والمصادفة التى ندعيها فى الكون هى للموعد أو الميلاد الذى حدده الله سبحانه وتعالى ليكشف عن قانون فى الكون يجهله الناس ، عسى أن يدركوا بهذا القانون الذى كان يعمل فى خدمة الإنسان ، و لم يكن أحد يدرى عنه شيئا ، عسى أن يكتشفوا بهذا القانون اعجازا من اعجازات الله فى كونه ، فيزيدهم هذا الإعجاز فهما وإدراكا لعظمة وقدرة الله سبحانه وتعالى ، ولكن الذى يحدث للأسف الشديد أن الإنسان ينسب الفضل لنفسه وينسب الكشف لنفسة ، وينسى قدرات الله ، وكل شىء فى هذا الكون ابتداءً وانتهاءً هو من الله، فحبة القمح التى نأكلها الآن أتت من زرعة القمح فى الموسم الماضى ، وزرعة القمح فى الموسم الماضى أتت من زرعة القمح فى الموسم الذى قبله ، وهكذا تتسلسل الأشياء ، حتى نصل إلى حبة القمح الأولى ، التى لم تأت من موسم سبق ، من أين أتت هذه الحبة ؟ من الله سبحانه وتعالى ، والشجرة التى تراها أمامك جئنا ببذرتها من شجرة سابقة ، والسابقة جئنا ببذرتها من شجرة أسبق ، وهكذا نمضى حتى نصل إلى الشجرة الأولى ، من الذى أنبتها مادامت لم تأت من شجرة سابقة ، فلا بد أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أو جدها .

قال الله لآدم : ﴿**يا آدم انبئهم بأسمائهم**﴾ ، أى أن الله سبحانه وتعالى طلب من آدم أن ينبئ الملائكة بأسماء تلك المخلوقات ، التى لا يعرفون أسماءهم ، والتى عجزوا أن يذكروا أسماءهم أمام الله ، وهنا نتوقف قليلا لنقول كيف أنبأ آدم الملائكة بهذه الأسماء ، لابد أنه أنبأ بها بلغة يفهمونها ، فما دامت هى أسماء فهى تنطق أى تقال ، فمن أين عرف آدم اللغة التى يتحدث بها، واللغة هى وليده البيئة أى أنها لا تورث ولا تكون فى الإنسان بالطبيعة ، بل للإنسان أن يسمع حتى يتكلم ، ولذلك نجد أن الصم الذين لا يسمعون والذين ولدوا هكذا لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد ، وآدم قد نطق بأسماء هذه المخلوقات فلابد أنه سمع حتى يستطيع أن ينطق ، فمن الذى علم آدم الكلام ؟ إنه الله ؛ فلابد أن آدم لكى يستطيع أن يتكلم يكون قد سمع من الله ، وهكذا فإن هذا إعجاز آخر من أعجاز القرآن الكريم ، يدل على أن الله هو الذى علم الإنسان الكلام ، وآدم قد تعلم اللغة من خالقة سبحانه وتعالى .

وفى كتابه ﴿**أسماء الله الحسنى**﴾ يشرح لنا الشيخ محمد متولى الشعراوى[1] أن الله سبحانه وتعالى كان و لم يكن معه شيء ، ثم خلق الخلق وأطلق على كل مخلوق اسما يترك عليه ، بحيث إذا أطلق الاسم تبادر إلى الذهن صورة المسمى ، فحين أقول لك شمس ، يرد إلى ذهنك صورة القرص الذى يشرق كل صباح ، ليملأ الأرض نورا ودفئا ، وهكذا .. السماء .. والأرض .. الجبال .. الكواكب .. النجوم .. الشجر .. كلها أسماء تدل على

---

(١) محمد متولى الشعراوى : "أسماء الله الحسنى" ، الجزء الأول ، مكتبة الشعراوى الإسلامية ، أخبار اليوم ، ١٩٩٣.

مسمى بعينه ، وقد علمَّ الحق سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها ، يقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين﴾** وكلمة كلها تفيد الإحاطة والشمول .

ويقول الشيخ الشعراوى فى موضع آخر : الإسم نوع من أنواع العلم ، والعلم فى اللغة هو أسم يعين مسماه -كما ذكرنا- بحيث إذا ذكر الاسم وردت صورة المسمى فى الذهن ، وينقسم العلم إلى ثلاثة أقسام : (اسم ولقب وكنية) ، والاسم : هو ما يوضع على المسمى أول وضع ، بحيث إذا ذكر الاسم وردت صورة المسمى فى الذهن ، أما اللقب فهو ما أشعر برفعة أو بضعة ، وكان وضعا ثانيا فابنك الذى انجبته وأسميته أحمد قد تشعر مع الأيام أنه يتصف بالغباء فتطلق عليه الفظ (الجهول) أو(جهلان) ، والكنية ماصدر بأب أو أم أو أخ أو أخت ، وكانت وضعا ثانيا ، فابنك الذى سميته أحمد حينما يكبر وينجب ابنا يسميه (بكر) فينادية الناس (أبا بكر) فإن هذه تصبح كنية له .

شرح الأستاذ محمد شهاب الدين الندوى :

ويقول الأستاذ محمد شهاب الدين الندوى فى كتاب (بين علم آدم والعلم الحديث)[1] : أن هذه الأسماء ما هى الاعناوين الأشياء وتعريفاتها وخصائصها ومنافعها ومضارها ، التى لها أهمية بالغة فى مجال الخلافة فى الأرض ، ولا تقوم الخلافة : أى سيادة العالم والسلطة على الكينونات إلا بهذا العلم الأساسى ، ولذلك علم الله تعالى الإنسان الأول هذا العلم الهام بعد مشروع استخلاف الأنسان علي الفور ، كما تظهر هذه التصورات بأول وهلة من النظر .

وتحت عنوان ما هى الأسماء يقول الندوى : الأسماء لغة ما تعرف به الأشياء ، أى ما يعرف ذوات الأشياء ، فقد صرح أهل اللغة أن اسم الشيء علامته ، قال أبو العباس : الاسم رسم وسمة توضع على الشيء تعرف به ، قال ابن سيده : والإسم اللفظ الموضوع على الجوهر والغرض لتفضيل به بعضه من بعض ، وقال الراغب الأصفهانى : (وعلم آدم الأسماء كلها) أى الألفاظ والمعانى مفرداتها ومركبا تها ، لأن معرفة الأسماء لا تحصل الا بمعرفة المسمى ، وقد ذكر لسان العرب : قيل معناه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات .

ويقول العلامة شهاب الدين الآلوسى : (والحق عندى ما عليه أهل الله تعالى ، وهو الذى يقتضيه منصب الخلافة، وهو أنها أسماء الأشياء علوية أو سفلية ، جوهرية أو عرضية).

---

(١)محمد شهاب الدين الندوى : "بين علم آدم والعلم الحديث" ، دعوة الحق ، إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامى ، مكة المكرمة ، السنة السادسة ، العدد ٦١ ، ديسمبر ١٩٨٦ م.

ويرى الأستاذ الندوى أنه قد أحاط لفظ الأسماء جميع موجودات الكون وسائر ظواهر العالم من أعراضها وخصائصها وآثارها ، وهذا علم واسع المدى ، وبه يتم مصالح الدين والدنيا ، ولخطورته سعد الإنسان بإعطاء هذا العلم فى أول يومه ، ويقول الأستاذ الندوى عن مفهوم الأسماء كلها أن هذا المفهوم يدل على أن جميع أشياء الكون وأنواع الحياة وأصنافها قد خلقت بكمالها قبل خلق آدم عليه السلام ، وبالتالى فإن الكرة الأرضية كانت متزينة ومشحونة بجميع أمتعة الحياة وحوائجها ، وخالية من كل نقص أو عيب لتكون مضافا للإنسان .

ويقول الأستاذ الندوى إن أول علم رزق الإنسان هو علم الأشياء ، ويعنى علم جميع موجودات الكون بخصائصها ومميزاتها ، ونكاد نعبر عنه بـ (علم الأسماء) حسب مصطلح القرآن الكريم ، وعلى كل ، وهذا هو العلم الحديث ، فإن العلم الحديث يبحث عن نفس هذه الأشياء وخواصها وظواهرها وفاعلياتها ، والتى عبر القرآن عن جميع هذه بلفظ معجز وهو (الأسماء) ، فإن علم الطبيعة (Physics) ، وعلم الكيمياء (Chemistry) ، وعلم الأحياء (Biology) ، وعلم الجيولوجيا (Geology) ، وعلم الأفلاك (Astronomy) وغير ذلك من العلوم الكونية إنما تدور حول الأشياء المادية (أى حول المسميات) وخواصها ونعوتها ومميزاتها ، فالعلم الحديث عبارة عن البحث والدراسة عن الأشياء الموجودة ، والمظاهر الكونية بتراكيبها وماهياتها وكيانها .

ويقول الشيخ محمد شفيع المفتى الأكبر لباكستان : (لابد لاستحقاق الخلافة فى الأرض من معرفة المخلوقات الأرضية وخصائصها وآثارها ، وما كانت طبيعة الملائكة حاملة لذلك) ويقول الأستاذ الجوهرى : (فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء لا يستحق أن يكون خليفة عليها) .

ويقول الأستاذ الندوى أن الفرق بين آدم وأولاده فهو أن علم آدم كان موهوبا من الله تعالى ، أى كان هو العلم الذى أعطاه الله من غير كسب ومشقة ، بينما العلم الذى أعطى أبناء آدم فهو مكسوب وحافل بالتعب والعناء ، ولكن الله فطر الناس مجبولين باستعداد كسب هذا العلم لكى يسخروا أشياء الكون ويؤدوا مسئولياتهم تجاه خلافة الأرض.

ومصطلح (علم الأسماء) شامل واسع المدى ، يشمل جميع العلوم والفنون ، ونستطيع أن نعبر عنه فى المصطلح المعاصر بالعلم والتكنولوجيا (Science and Technology) ، لأن مفهوم العلم والتكنولوجيا هو معرفة المادة (Matter) واستخدام طاقاتها (Energies) ، مثل إعداد أنواع المنتجات والمركبات الكيميائية وشتى لوازم المدنية ، والانتفاع بالحرارة

والكهرباء بعـد تذليلهمـا فـى شـتى مجـالات الحيـاة البشـرية ، فـالعلم والتكنولوجيـا لازمـان للخلافة فى الأرض ، فهما توأمان لا نفرق بينهما أبداً .

ويرى الأستاذ الندوى أن علم الأسماء يكشف النظـام الإلهـى ، ويمهـد الطريـق لمعرفـة الله تعالى ، وأنه يحيط بكل شىء علماً ، ولكن تعلم الأسماء يعنى ظواهر الأشياء فقط وليـس داخلها وسرها فهذا من العلم اللدنى لله وحده .

الفصل الثانى

الأسماء

بعد أن عرضنا لتفسير آية تعليم الحق لآدم الأسماء كلها كما تناولها الأقدمون والمحدثون نحاول فى الصفحات التالية أن ننظر إلى الأسماء بمنظور فكرى متجرد ما استطعنا ، فى محاولة لإدراك هذا المفهوم الأساسى فى حياتنا ، والذى نتعايش معه كوجود أثيرى يشمل منطقنا وحديثنا وفكرنا، ومن المعلوم أن تناول الأساسيات البسيطة من أصعب الأمور، لأنك لا تملك مفاهيماً أكثر أساسية منها لتردها اليها ، ولذا فأنت مرهون بعلاقاتها الأفقية المتشابكة مع أقرانها ، ولقد حاولت هنا مع الأسماء أن اتخيل اختفاء الأسماء فى حياتنا وبهذا تسللت مع العلاقات المتشابكة التى كانت مرتبطة بالأسماء واختفت معها ، وظللت اتابع اختفاء العلاقات حتى وجدتنى قد أخفيت كل شىء ؟ .

تعالوا بنا نكافح فى فهم الأسماء .

تعريف علمى للاسم :

ما هو الإسم ؟ ، انظر إلى هذه الألفاظ الصوتية ، والتى يمكن أن تدون بصورة مقروءة، والتى نعبربها عن شىء بعينه ، وقد نعبربها عن قطاع كبير من الأشياء ، بينها صفات مشتركة ، فيمكن أن نطلق عليها لفظاً واحداً ، هو إسم لها .

نحن نقول : شجرة وجبل وماء ، وكم من الأشجار وأنواعها والجبال وتضاريسها والماء ومكوناته ، ولكننا نميز كل شىء باسمه بلا لبس أو غموض ، فالكتاب تعرفه كمجموعة من الأوراق المدون عليها معلومات معينة ، وقد يكون الكتاب كبيرا أو صغيرا ، ويحتوى صورا أو رسوما ، ذو غلاف سميك أوملون ، وقد يكون فاخراً أو حتى ردئ الإخراج ، إنه الكتاب دائما، نميزة رغم تغير شكله ومحتواه تغيراً لانهائيا ، ولا توجد شجرتان وإن كانتا من نفس النوع منطبقتان تمام الإنطباق ، ولكننا نقول بكل اليسر : هذه شجرة ، برغم تعدد أشكالها ، وتنوع صفاتها وأعدادها الموجودة ، والمندثرة فى الأزمنه الماضية ، والمقدر لها أن تنبت فى مستقبل الدهر .

والإنسان نفسه لا يمكن أن يتشابه شخصان تمام التشابه ، بل هناك من فقد الذراع ، وهناك من زادت أصابعه واحدا ، وهناك القزم ومفرط الطول ، ولكننا نميز الإنسان دائما عن غيره من المخلوقات بلا لبس أو غموض

الأسماء تعبر عن أشياء ومعانى ، متغيرة تغيراً لانهائيا ، ولكنها تشترك معاً فى سمات عامة فنحن نقول : الحرية ، وقد تعنى أن نفتح للعصفور باب القفص الجميل الذى يسكنه ، وقد تعنى للثوار أن يحصلوا على حق الانتخاب والترشيح ، وقد تعنى خروج الغزاة الأجانب وعودتهم لبلادهم ، ونحن نقول : المرض ، وله أنواع كثيرة ، بعضها معلوم لنا ، وبعضها غير معلوم ، وبعضها يظهر حتى بتطور الزمان ، فكل اسم يحتوى تفاصيل لا نهائية .

وهكذا فالطبيعة متنوعة تنوعا لانهائيا ، وكذلك الأفكار والمعانى ، ومن المعلوم أن مقدار ما نعرفه من الطبيعة وأنفسنا يمثل جزءًا غاية فى الضآلة بالنسبة لما هو موجود فى عالم المعرفة الشاسع ، بل إن المعرفة من سماتها اللازمة أنها متزايدة ، سابقة باستمرار ، فكلما علمنا الجديد كلما فتح هذا الجديد مجالاً جديداً للمعرفة ، حتى أننا كلما علمنا كلما أحسسنا بجهلنا عن أشياء أخرى ظهرت لنا بهذه المعرفة ، ونحن ندرك أن المعرفة عالم لا نهائى .

الأسماء أسلوب لتمييز المعرفة ، والسعى فى جوانبها الفسيحة ، فهى تميز مفردات المعرفة ، وتعطيها تعبيرا يسيرا بسيطاً ، يجعلنا جميعاً نتعارف عليها كلما لفظنا أسماءها ، فالشجرة تعبير عن كائن له من الصفات والأنواع والأعداد والتصرف والوظيفة والقيمة وغيرها ما لا يمكن اعتباره إلا أنه لا نهائى المفردات ، ومع ذلك فبكل البساطة واليسر ودون استظهار هذه المفردات نقول : هذه شجرة ، ونقول : هذا غصن وهذه ورقة ، وكم من أشكال الأغصان والأوراق ، بل وأهم من ذلك : كم من الأحداث التى تحدث فى هذه الأوراق وهذه الأغصان من "نتح" و "تمثيل" و "احتراق" ، وكلها أسماء لتغيرات تحدث لمادة هذه المكونات للشجرة ؛ فالأسماء كأسلوب لتمييز مفردات المعرفة تشبه الشفرة ، التى عندما نذكرها تعنى كمية هائلة من المعلومات ، عبرنا عنها بلفظة غاية فى السهولة واليسر ، ولكنها تعبر عن وجود غاية فى التشابك والتعقيد والمعلومات اللانهائية .

إن المعجز فى إطلاق الأسماء أنها لا تستدعى من المتحدث بالأسماء أن يكون مستظهراً لكمية المعلومات الهائلة التى يحتويها كل اسم ، فالمتخصصون فقط هم الذين يعرفون تفاصيل العمليات الحيوية التى تحدث فى الأشجار مثلا ، أو خواص الالكترون ، هذا ويقبل العلماء المتخصصون حقيقة أن معلوماتهم عن هذه المسميات ضئيلة للغاية .

هذه الأسماء اليسيرة لنا جميعاً تمكننا من التعبير عن مفردات الطبيعة ، رغم جهلنا بمعظم تفاصيلها ، ورغم ضعفنا عن الاحاطة بها ، ورغم ضعف أنبه العلماء المتخصصين عن سبر أغوارها، بل أن الذين يملكون قدراً من الحكمة يقررون أننا لن نحيط علما بمفرد واحد من مفردات المعرفة فى مستقبل الزمان ، رغم ذلك كله نحن نطوى جوانب المعرفة فى لفظة يسيرة ، تجعلنا نقول بكل الثقة : زرعت هذه الشجرة ، هذه الشجرة ! ، أو تعلم كم المعرفة

الخاص بهذه الشجرة ؟ ، وهل تعلم ؛ إن كنت من العلماء الأفذاذ فى علم النبات ؛ ماذا يحدث للتربة وكيف تغذى هذه الشجرة ؟ سبحان الله ، إننى لو تجردت من معرفتى بالأسماء؛ وهذا مستحيل ؛ فإن المنطق الغفل يستدعى أن يُعْرف كل شئ عن هذا المفرد ، حتى يمكن أن نطويه طيعاً ونقول : إن هذه هى الشجرة ، وكأنك تعرفها ، كم نعرف من أمرها ؟ وكلما سألت عالما أنبه من سابقه سيقرر أن معرفتنا أكثر ضآلة مما قرره سابقه .

لكأن الإسم هو ذلك الصندوق الأسود الذى يحتوى الحقيقة اللانهائية ، ونحن نتناوله سهلا يسيرا ، بل أننا نملك عدداً كبيراً من الأسماء ، ونسعى بها ، ونتعارف بها ، ويدرك كُلٌّ منا المقصود منها تماماً دون عناء ، وكل اسم يعبر عن وجود لانهائى من المعرفة ، نحن لا نعرفها ، ولكننا نقرر بلفظة الإسم أننا مجاهدون فى معرفة الجديد عن هذا المفرد ما حيينا ، إنه التعبير الذى علمه لنا علام الغيوب طويا لجوانب المعرفة اللانهائية فى لفظة غاية فى اليسر، تذكاراً لنا بمواصلة السعى لمعرفة الجديد من أمره ، واعترافا منا بجهلنا الدائم عن الإحاطة به .

الإسم يشتق من لحظة معرفة الناس بالمسمى ، وقد يشتق من صفة فى المسمى ، وقد يكون تعبيرا لم يشتق أساساً من المسمى (مادته أو صفاته) ، لكنه دالة كاملة فى المسمى كالدالة الرياضية التى تحتوى على تعبير رياضى لا يمت بصلة لما نعبر عنه بهذه الدالة ، فمثلا لو عبرنا عن التيار الكهربى المتردد بدالة جيبية فأين هذه العلاقة الرياضية من التيار الكهربى ، المنير للظلام ، والمحرك للآلات العملاقة ، الباطش بمن يقترب منه ، ومع ذلك فإن الدارسين يستخدمون الدالة الجيبية لكى يدرسوا ويحققوا تقويم التيار الكهربى ، وعلاقته بالحركة الدورانية المكونة له بل وتأثيره فى الملفات والمغناطيسات البعيدة عنه والتى لا تتصل به مباشرة . فالإسم دائماً وجود عقلى بسيط يسير بينما ذات المسمى لها وجود عملاق مؤثر فعال ، بل نحن قد نتحكم فى هذا الوجود العملاق باسم لوجود أبسط منه ، فيخرج علينا من يخترع "الزر الكهربى"! .

فالإسم هو المدخل إلى السعى فى عالم المعرفة ، وذلك بالتعبير عن المعلومات اللانهائية، واحتوائها فى أقل مجهود فكرى ممكن يدل عليها مجتمعة رغم عدم الإحاطة بها ، وهو كما قدمنا يذكرنا بمواصلة الاستزادة من المعرفة ، كما أنه اعتراف منا بعدم الإحاطة بعلم الله ، الذى يحتويه هذا الإسم ، والإسم نفسه غاية فى اليسر والسهولة .

وبلغة الرياضيات يمكننا اعتبار الأسم أنه يتخطى ما لا نهاية له من المعلومات ليعبر عنها بشكل بسيط فى أقل حيز عقلى يقترب من الصفر ، لكأن الاسم هو تعبير عن اللانهائية بالصفر ، أو هو أحتواء ما لا نهاية فى صفر .

نعم : أنه التلخيص الرباني العظيم ، الذى يعبر عن جوانب المعرفة الشاسعة بأقل المجهودات اليسيرة ، التلخيص الذى يعبر عن كل شئ باللاشئ ، إنه التبسيط المطلق ، الذى يمكننا من معرفة عدد كبير جداً من الأسماء بسهولة ويسر ، نسعى بها ، ونبحث فيها ، ونعرف الجديد عنها كل يوم ، اليست هذه الأسماء هى التى علمها الحق سبحانه وتعالى لآدم، وعجز عنها الملائكة ، عجزوا عنها لأنهم يدركون عظمتها ، وكيف أنها مدخل إلى المعرفة ، وأنها تمكن الحكمة من أن تكون الحكم فى الأشياء وفى المعانى ، والحكمة لله وحده ، والعلم لله وحده ، وهذا ما تقرره الأسماء ذاتها ، فهى تعلن أننا لن نأتى على العلم الذى يحتوية اسم واحد ، وناهيك بعدد الأسماء .

ومن ذا الذى يتخيل تواصلا وتفاهما بين بنى الإنسان بدون ادراك مفهوم الأسماء والسعى به ، ومن ذا الذى يوحد ادراك الناس لشئ بعينه ، فليفظون نفس الصوت على نفس الشئ جميعهم ، وقد يكتبون أو بالأحرى يرسمون تمثيلا ثابتا له دائما . جميعهم ، بل إن المطلوب أبعد من ذلك ، لأن اختلاف لغات الناس وبنية الأسماء نفسها لاينفى اتفاق مفهومها بين البشر كتعبير لتمييزالأشياء ، وتبدأ الترجمة - وهى اسم أيضا - لتحقيق التناظر بين بنيات الأسماء .

الأسماء هى المدخل لإدراك الانفصال والاتصال فى الوجود :-

الأسماء تعنى الانفصال فى مفردات الطبيعة ، أى أن هناك أشياء منفصلة متميزة ، يمكن أن تنشأ بينها علاقات ، ويخرج من علاقاتها أشياء وأشياء ، بل نقول : يخرج من علاقاتها أسماء ! .

من ميز الشجرة عن الأرض ، وصارت لها وجودا منفردا فى عقله ، فإنه من الممكن له أن يفكر فى غرسها ، ومن الممكن له أن يستخدمها لأغراضه بعد اقتلاعها ، وهو لن يصاب بالهلع الغريزى ، ولن يفقد البصيرة إذا وجدها تسقط أمامه ، مثلما يحدث مرارا وتكراراً لنفس الحيوان ، وذلك لأنه سماها ، وميزها عن غيرها من المسميات ، فصار تصرفها الفردى واردا ، وصار فصلها ومحاولة استخدامها بمفردها ممكنا .

إن الأسماء تبصرنا بالتعدد فى الطبيعة وتقسيمها لمفردات ، وبالتالى فإن من يدرك الأسماء ، يمكنه فصل هذه الأسماء ، وتحديدها ، وتمييزها عن بعضها ، ثم إن الانسان يمكنه استعمال الأسماء المعنوية مثل قطع وتكسير وتهذيب ، فيمكنه ان يهذب الصخر فيصبح سلاحا ، وهكذا يكون الانسان قد انتقل من اسم الصخر إلى اسم السلاح باستخدام أسماء القطع والتكسير والتهذيب ، وهكذا يسعى الإنسان فى الأسماء متاحة اليه ، فيتمكن الأنسان البدائى من مواجهة اعدائه من الحيوانات الضارية باستخدام السلاح الصخرى ، ثم هو لابد

سيكتشف اسم النار ، ويميزها مفرداً من مفردات الطبيعة ، ثم هـو سيسـعى للحصـول على النار قاصدا ، بعد ان ميزها مصادفة ، ذلك أنهـا مـن مفـردات الطبيعـة ، وقـد ميزهـا اسمـاً ، فلابد وأن يتعامل معها ، وهكذا سيكتشف الاسم المعنوى لطهو الطعام ، بل هو سيكتشـف انصهار حجر خاص سيسميه نحاساً غفلاً باستخدام النار، ثم هو سيكتشف سباكة النحاس والحديد لينتج أسلحة أمضى وأقوى ، وهكذا سيسعى خليفة الله فـى الأرض مبدعـا مضيفـا مقيما للحضارة .

والانفصـال مدخـل لادراك الاتصـال ، فمـن ميز المفـردات وفصلهـا أدرك توصيلهـا وتجميعها، وأنّى له أن يدرك اتصالها دون أن يدرك انفصالهـا قبـلاً ، وهنـا يمكـن الانسـان أن يقوم بخلط الماء والتراب لانتاج الطين ، ويمكنه ادراك تجمد الطين إذا تـرك ليجـف ، وهكـذا سيصنع الانسان جداراً من هذا الطين ، ويكمله إلى مسـكن يقيـه الحر والـبرد ، نعـم سيبدأ الانسان فى التعامل مع الوجود لصالحه .

فالاسم هو الوحدة الأساسية فى المعرفة ، وهناك لانهاية من الأسماء ، قـد تحولـت إلى مجموعة من الأصفار ، نستوعبها دون عناء ، فهذا شجر ومنـه خشـب ، وهـذا حديـد ومنـه مسمار ومفاصل ، وهذا منشار صنعناه ليمكننا من الاسم المعنوى لقطـع الأخشـاب ، وهـذا الغراء ، وهذا الشاكوش ، وهذا الطلاء ، ومن العلاقات المنظمة ، العلاقات الخلاقة بين هـذه المفردات ، ينتج اسم فائدة ، اسم الدفء والهواء ، ينتج اسـم الشباك ، وقـس علـى ذلـك ، كيف ستكون الدنيا عندما يسعى الإنسان بالأسماء .

تلك هى الأسماء فى بساطتها العملاقة ، تلك هى وحدات المعرفة التى تمكـن الحكمـة من إقامة علاقات بينها لانتاج اسماء جديدة ، وياها من مفردات بسيطة فى عقـل الإنسـان ، ولكنها تمكنه من الحركة والانتقال من أعماق المعرفة ، تمكنه أن يكـون خلاقـا ، وأن يكـون مبدعا ، تمكنه أن يكون خليفة لله ، وهو يسعى مع الأسماء وبالأسماء ونحو الأسماء .

لقد وقفت ملياً أمام حيوان ، ينبـش فـى جـذر شـجرة ، ولكنـه فجـأة جـرى خائفـا عندما سقطت الشجرة ، وولى بعيدا ، وكأن انفصال الشجرة عن التربة شيء غريـب مخيـف غير متوقع ، مع أنه حدث تقليدى عابر متكرر ، لايعنى أكثر من أن الشجرة شـيء منفصـل عن الأرض ، ويمكنه فصلها عن الأرض ، وكم خبر أطفالنا ذلك بعد بضع مرات ، وناهيك عن "الجاذبية" التى تسبب وقوع الأشياء ، أىُّ تاريخ يلزم هذا الحيوان حتى يسـبر غـور هـذا الإسم العقلانى !، ولو تسلسلنا فى ادراك الانفصال والاتصال فى مفردات الوجود لأمكننـا أن نميز شجرا معينا ينضح سائلا "صمغ" وجبلا معينا به حجر "مغنـاطيس" ، وسـنظل نتـابع هذا الادراك إلى أن نصل إلى السيارة والطائرة والصاروخ ، سبحانه الله .

أين قوة الإنسان من الفيل بل ومن الديناصور الذى يمكنه أن يقضى على الإنسان ، ولكن الإنسان صنع المسكن وقطع الأخشاب ، و لم يصنعه الفيل ، و لم يقطعها الدنياصور ، والمسمار من الحديد ، والحديد من الخام يوضع فى الأفران ، والخام فى التراب ، والتراب يتعايش معه الكثير من الحيوانات ، بل إن بعض الحيوان يقضى حياته فى الخام الترابى ذاته ، و لم يتمكن الحيوان أن يصل إلى المسمار .

لقد أدرك الملائكة ؛ وهم خدام العرش ؛ عظمة السؤال حين قال لهم الحق : "انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين" ، وقد يقول البعض : وما الصعوبة فى معرفة الأسماء ، انها بسيطة للغاية ، نعم إنها بسيطة للغاية ، بعد أن عَلَّمها الحق تبارك وتعالى لآدم ، ولكن فى هذا الزمن الأزلى لم تكن كذلك ، والملائكة لم يتعلموها ، فأدركوا عظمة السؤال ، وردوا ردهم الصادق : ﴿**قالوا سبحانك لاعلم لنا إلاما علمتنا إنك انت العليم الحكيم**﴾ .

لايدرك العظمة ولا يقدرها إلا من يفتقدها ، وفاقد الشىء لا يعطيه ، لقد أدرك الملائكة ذلك حينما عرض عليهم الحق سبحانه وتعالى أمر الأسماء ، وهم خدام العرش والمنفدين لأوامر الحق فيه ، من قبل آدم وحتى يوم الدين ، فجبريل ينزل للرسل بكلمات الله لا يعوقه مكان ، وعزرائيل يقبض الأرواح بأمر الله ، ويضع نهاية الإنسان ، كل هذه المهمات الهائلة للملائكة ولا يعرفون الأسماء ، واعلنوا أن لاعلم لهم إلاما علمهم العليم الحكيم ، وذلك لأن الأسماء منة من الله لآدم ، ليكون جديرا بخلافة الله فى الأرض ، ولكى يتمكن هو وذريته من تطويع الطبيعة والتغيير فيها ، وهذا ليس متاحاً للملائكة خدام العرش، الذين يخدمون الحق سبحانه وتعالى دون أن يكون لهم أن يغيروا خلق الله .

التعليم الربانى العظيم :

كان تعليم الأسماء تعليما عظيما ، لأنه تعليم ربانى خالص ، فهو ليس بمعناه الضيق : تحفيظ لأسماء بعينها استظهرها آدم ، ريثما يتمكن من القائها على جمهرة الملائكة ، بل أنه تعليم ربانى وما أعظم التعليم الربانى القويم ، لقد علمه الله مفهوم الإسم ، علمه الله استخدام الأسماء وادراك الأسماء والسعى بالأسماء أسلوبا ومنطقا للتعبير عن الحقيقة ومعاملة الوجود وفهمه وتطويره، حباه الله بعلم الأسماء ، يعرفها ويغيرها ويمحوها ويقدها قداً كلما عن عليه جديد ، علمه الله مفهوم الأسماء ودورها ومعناها ، فصارت فى روعه وسيلة طيعة يسعى بها ليستحق خلافة الله فى الأرض .

نعم : إنه تعليم للمفهوم ، فصار تعليما مفهوماً لاستظهاراً ، تعليما مستوعبا نافعا ، فهو التعليم الربانى الذى أعجز الملائكة ، وكان برهانا من الله للملائكة على استحقاق آدم لخلافة الله فى الأرض .

وتبياناً لهذا المعنى يقول ابن كثير فى تفسيره :

"قال الذى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح وعن ابن عباس وعن مره وعن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أخرج إبليس من الجنة ، وأسكن آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحيشاً ليس له زوج يسكن اليه ، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه أمرأة قاعدة خلقها ا لله من ضلعه فسألها ماأنت قالت : امرأة قال : و لم خلقت ؟ قالت : لتسكن إلى . قالت الملائكة ينظرون مابلغ من علمه : مااسمها ياآدم قال : حواء ؟ قال : إنها خلقت من شيء حى" ، وفى دائرة المعارف الأمريكية(1) تحت بند حواء "Eve" أن أصلها "life" أى الحياة .

فهذه القصة توضح أن الملائكة يدركون معنى التعليم الربانى لآدم ، بأنه فى قدرة إطلاق الأسماء ، ولذا نجد آدم يسمى زوجه حواء ، ثم يعلل سبب تسميتها بأنها خلقت من شيء حى أى من ضلعه ، أى أنه استوعب التعليم الربانى وصار قادرا على اطلاق الأسماء والسعى بها .

إن الأسماء فى عقولنا نحن بنى آدم سهلة وبسيطة للغاية ، ولكن حقيقتها أنها عظيمة ومفهومها عملاق للغاية ، وبمقدار قوتها وعظمتها بمقدار سهولتها ويسرها فى عقولنا . نعم إنه التعليم الربانى العظيم ، وكيف تظن تعليم الحق لآدم ؟ ، إنه تعليم ربانى جعل الأسماء العظيمة المعقدة سهلة يسيرة ، لقد اختار الحق سبحانة وتعالى مفهوم الأسماء العظيمة ليقدمه لآدم سائغا سهلا يسيرا حتى يتمكن من المضى فى عالم الحقيقة مدركا فاهما مستوعبا مقيما للحضارة ومحملاً بالأمانة ليستحق خلافة ا لله فى الأرض ، لقد خص الحق آدم بهذا القبس من علمه اللدنى بل وعلمّه إياه فصار آدم قادرا على التعامل مع الوجود متسقا معه .

(جـ) تفسير الأسماء بالأسماء : —

من الثابت – كما قدمنا – أن معلومات الإنسان عن أى مفرد فى الموجودات سواء كانت مادية أو معنوية هى معلومات ضئيلة بالنسبة للممكن معرفتة، والأنسان يتعلم كل يوم الجديد فى كل اتجاهات المعرفة ، فالأسماء التى نعرفها كلها مازلنا نحتاج لنعرف المزيد عنها ، ولن تتوقف المعرفة عن إسم واحد ، ونحن لكى نفهم المزيد عن إسم معين نحن فى الحقيقة نفعل ذلك بأن ندرك أسماء أخرى .

لنضرب لذلك مثلا باكتشاف" الالكترون" ، فحين اكتشفه طومسون عام ١٨٩٧ والبحث لا يتوقف عن معرفة المزيد عن هذا الالكترون ، وقد سماه طومسون الكترون أى صغير الكهرباء ، فهو المسئول عن التوصيل الكهربى فى الأسلاك المعدنية ، وقد ترجمت

---

(1) New Standard Encyclopedia , Standard Educational Corporation , Chicage , (1976).

الكلمة إلى العربية باسم "كهيرب" أى صغير الكهرباء ، ولكن بمرور الوقت لم تثبت هذه الترجمة ، واستخدمت الترجمة الحرفية ، وذلك لعمق تعبيرها فى اللغة التى تم اكتشافه بها ، ولفهم الالكترون بدأ البحث العلمى يشق طريقة لأسماء جديدة مثل "الشحنة السالبة" فالالكترون مشحون بشحنة سالبة ، تجذبة نحو القطب الموجب ، بدأ الأنسان يفهم "المدارات" التى يدور فيها الإلكترون داخل الذرة ، وهذه المدارات لها "مستويات طاقة" ، وهذه المستويات لها درجات "تشبع" وظهرت "الأرقام الكمية" ، التى تدل على وضع الإلكترون فى الذرة ، وبدأ العلماء تطبيق الميكانيكا الكمية على الإلكترون ، وذلك لأن الالكترون لا يتصرف طبقا للميكانيكا التقليدية التى قدمها نيوتن .

ولو أخذنا أى موضوع لو جدنا أنه كلما ارتقت معلوماتنا فيه كلما زادت الأسماء المرتبطة بهذا الموضوع ، فكل اسم نعرفة يجعلنا نتعرف على مفردات جديدة ، قد تكون مادية أو عقلانية، هذه المفردات نطلق عليها أسماءً لنميزها ونحددها ، ونعلن وجودها على مائدة البحث وهذه الأسماء الجديدة بدورها تجعلنا نميز مفردات جديدة ما نلبث أن نسميها وهكذا ، وفى تسلسلنا خلال الأسماء قد نعود لأسماء ميزناها من قبل ، وهكذا تتشابك الأسماء معا بأسلوب عميق ، تحكمه الحكمة الإلهية فى الخلق ، مكونة نسيج المعرفة المتشابك، الذى يستحيل على كائن أن يتحرك فى ادراك هذا النسيج بدون التسلح بمفهوم الأسماء ، واستعمالها ، والسعى بها .

وعلى ذلك فالمعرفة البشرية هى مجموعة هائلة من الأسماء ، متشابكة معا، ونحن نتحرك فيما بينها ، فنعرف الجديد عن الأسماء بمعرفة الأسماء المحيطة بها فتفسر الأسماء بعضها، وكلما تحركنا فى نسيج المعرفة كلما أدركنا أن هناك أسماء ناقصة يلزمنا تمييزها ، فالمعرفة عالم شاسع منطلق ، مفرداته هى الأسماء .

إدراك الأسماء هو الأساس الذى قام عليه العلم البشرى : -

إن قدرة الانسان على التعامل مع الأسماء كانت الأصل فى اعظم منجزات الانسان ، وهو العلم ، الذى مكن الإنسان من التدخل فى الطبيعة لصالحه .

وهو ما نعبر عنه بأن التعليم الربانى لآدم بعلم الأسماء كان قبسا من العلم الربانى العظيم ، لتفضيل آدم بخلافة الله فى الأرض ، ويكون قادراً على أن يتدخل فى مكونات الوجود ، مغيرا فيه، فأمكنه أن ينجز منجزات ملء السمع والبصر نافعة لحياته بل لترفه .

وكما قدمنا فإن الأسماء قد أرست صفة الانفصال فى الطبيعة ، وهذا الانفصال مدخل أساسى لإدراك اتصالها ، فالأسماء تعنى الاختلاف والتميز بين مفردات الأشياء والمعانى ، وهذا التميز مكن الإنسان من المضى فى عالم المعرفة بأسس مختلفة عن أى كائن آخر من الحيوان ، فقد استتبع إدراك التميز القدرة على اتباع مسالك عقلانية فى ترتيب

مكونات المعرفة ، جعلت خطوة الإنسان على درب الحقيقة ، وليست فى هباء التناثر بـدون معنى .

ومن المبادىء الأساسية فى العلوم التجريبية مبدأ التحليل ، وهـذا المبـدأ كـان المدخـل الأساسى لتفهم العلماء للطبيعة والتدخل فيها ، والتحليل بمعناه العام هو تحويل الوجود المادى أو المعنوى إلى مجموعة من الجزئيات المكونة ، لكل منهم اسم بذاته ، ويمكن التعامل مع هـذه الجزئيات بمفردها دون أى ارتباط بالوجود الكلى الأصلى ، فنفهم كـل جزئيـة على حـدة ، ونعبر عنها تعبيرا كاملاً ، ثم بعد ذلك نقوم بتجميع هذه الجُمَل معا ، وننتهى إلى فقرة عامـة معبرة ، كاملة بقدر ماحللنا وبقدر ما جمعنا ، قد نطلق عليهـا "النظريـة" أو "القـانون" أو مـا شئنا من الأسماء المعبرة عن العلاقات المنطقية ، ونحن نتحرك فى عـالم المعرفـة بهـذه الأسمـاء ، وقد ننتهى فى لحظة إلى اسم جديد لمعنى أو شيئا ماديا لم نصفـه فـى تحليلنـا ، فمـا نلبـث أن نفك مكونات فقرتنا المفيدة ونحللها راجعين فنصف الإسـم الـذى اكتشـفناه ، ثـم نعـود إلى تجميع فقرتنا لتصبح اكثر إفادة ، بعدها قد يقوم بناء يقى الحـر والـبرد ، بـل وفـى كـثير مـن الأحيان يعطى الترف والفضل، وقد ينقى الماء زلالا لأجسامنا وطعامنا ، وقد ينساب الحديـد المنصهر من الخام الترابى ، وقد نصبح فى أفريقيا ونمسى فى آسيا ، وقد ينطـق الجمـاد يخبرنـا بأخبار البلاد والعباد ،بل ويطربنا بالشعر والغناء ، وقد تتحـدث الأم الحنون بكـل الشـجون لولدها الذى يبعد عنهـا آلاف الأميـال ، ثـم قـل مـا شـاء لـك الله أن تقـول مـن منجـزات موجودة ، تصرخ بأسمائها وأسماء مكوناتها ، وتـترك المتخصصين يتناظرون بأسمـاء عقلانيـة تعبر عن وجودها ، من "تصميم" و"تطويـر" و "تقويـم" ، واسمـاء تـدل على مكوناتهـا مـن "موتور" و "مكثف" و"ملف" ، بل و "سلك" و "صامولة" .

إن قصة اكتشـاف تركيـب المـاء من الهيدروجين والأكسـوجين توضـح لنـا كفـاح الأنسان من اجل المعرفة ، كان العلاّمة شادويك فى حفلة صاخبة مع زمرة من أقرانه علمـاء الكيمياء فى هذا العصر ، وكعادة العلماء فى حفلاتهم أن يتنـدروا ويقضـوا وقتـا طيبـا مـن خلال عمل علمى حديث ، يمثل اكتشافاً يضيف لعظمة علومهـم ومنجزاتهـم ، وكـانت أن يحدثوا فرقعة لغاز الهيدروجين التى تحدث دويا هائلا ، يمثل احتفالا وسمرا خاصا لمنجزاتهـم ، فى معرفة التفاعل المـدوى الشـديد الـذى يحـدث للهيدروجـين فـى جـو مـن الأكسـوجين ، ولاحظ شادويك تساقط قطرات شفافة بعد هذه الفرقعة المدوية ، واستقرشـكلها فـى رأسـه وتمكنت من ادراكه أنها ناتج سائل لهذه الغازات المدويـة ! ، وتـرك الحفـل وعـاد إلى معملـه ليجرى تجاربه ، ويجمع القطرات الشـفافة التـى بـدأ يفطـن أنهـا المـاء واستوفى تجاربـه على خواص السائل الناتج ، واستوثق انه الماء فخرج على رفاقه باكتشافه الجلل ، ليعلن أن سـائل الماء مكون فى دخيلته من غازى الهيدروجين والأكسوجين ، وأن نتاج الحريق الهائل ماء ! .

لو لم يكن مستقراً فى ادراك شادويك أن الأشياء مكونة من جزئيات متميزة ، ولو لم يكن شادويك يدرك صفات السائل وتميزه عندما يراه ، ولو لم يكن شادويك يدرك ارتباط سقوط السائل بعد كل احتراق ، لو لم يكن شادويك يدرك هذا التميز وهذا الاختلاف بين السائل ومكونات الحريق لما أمكنه أن يدرك تركيب الماء ، لقد رأى شادويك فى لهوه يجميعا لمكونات الماء فخرج علينا بتحليلا لمكونات الماء ، ولولا ادراكه هذا ماعرفه وما عرفناه .

ولعل من أهم المنجزات العلمية هو دراسة تركيب المادة من خلال النظرية الذرية ، ولم تبدأ نظرية الذرة علميا إلامن نظرية رذرفورد الذرية ، إلا أن المفهوم الفكرى والفلسفى لكون المادة مكونة من دقائق صغيرة منفصلة فهو قديم منذ عصر بداية الفلسفة فى الأغريق ، فقد أيقن الإنسان صفة الانفصال فى الطبيعة وأنها المدخل إلى الاتصال فيها ، فأصبحت المادة مكونة من وحدات صغيرة أطلق عليها اسم "الذرة" ، وبهذا أصبح هناك وجودا مُعَرَّفا باسمه مجهولا فى مكنونه مجالا للتناول والتغاضى عنه حيناريثما يستقر على درب الحقيقة إن كان من مفرداتها ، وتم ذلك بتجربة قذف غلالة الذهب الشهيرة لرذرفورد ، فقامت النظرية الذرية ، ومازالت تتحدد وتشكل حجرا أساسيا فى العلم الحديث ، ولا أحسب أننا الممنا بمكنون الذرة ، فمازال المجهول أكثر مما نعرف ، ومع هذا تحدد اسمها منذ زمن بعيد ، وصارت وجودا معنويا ثم ماديا وتارة موجياً ، واندمج الوجود المادى والموجى ، وفى كل هذا هى الذرة ، وجود علي مائدة البحث وكل يفسر ويقترح ويجرب ويستنتج فى مجهول ، لا أحسب أنه سيصل يوماً إلى الحقيقة النهائية ، فنحن بكل اليسر طوينا جوانب هذا المجهول اللامنتهى فى كلمة واحدة صارت تمييزا وتحديداً لوجود نحن نسلم بجهلنا به ، ومحاولتنا فك أسراره واحدة تلو الأخرى من عالم معرفة لانهائى مرتبط بهذا الوجود ، ولكنه صار لنا "كاملا" فى تمييزه وتقديمه لمجال البحث وقتما سميناه . ذلك هو مفهوم الاسم ومفعوله ، وهب أننا لانسمى ، ولا نميز مانسمى ، ولانتعامل بالأسماء ، فأية ذرة ستبحث ! وكيف ستجمع مكوناتها من الكترون وبروتون ونيوترون وبوزيترون وغيرها وغيرها، وأية وجود معنوى فى عقولنا سيكون لهذه الذرة .

الأسماء تحتوى الحقيقة الغامضة فى الوجود :-

إذا كانت المعرفة البشرية هى كمية هائلة من الأسماء - أسماء لأشياء وأسماء لمعانى - فإن معاناة الأنسان فى الوجود ومحاولاته فى ادراك حكمة الوجود وسننه تتمثل فى تنسيق هذه الأسماء وترتيبها بالنسبة لبعضها ، فالأنسان كالفنان الذى يملك أعداداً هائلة من الألوان. . . هى الأسماء ... متاحة اليه بكل الدرجات وبكل الانطلاق

"كلها" ، وهو يرسم لوحة إنسانية من هذه الألوان، التى أعطاها له ا لله ، يرسم بضميره واختياره طريقه بين الخير والشر .

والإنسان دائما يبحث فى مكنون الأسماء ودخيلتها ، فلا يلبث أن يجد نفسه أمام مجهولات عنه ، فيسميها ويغلفها فى هذا الصندوق الأسود المجهول صندوق الإسم ريثما يتمكن عاجلا أو آجلا من أن يفض مكنونه ويغلف محتوياته فى أسماء جديدة .

إنه يتحرك دائما فى الأسماء .

وعلى هذا فالطبيعة تبدو كحلقة مغلقة من الأسماء تتحرك فيها دائما بالأسماء ، فمفردات الإسم ومكنونه كما هية من نوع تفصيلى مختلف عن معنى الإسم هو سر هذا الوجود ، وهو من العلم اللدنى لله وحده .

وكتشبيه لهذا المعنى نقول أن ملح الطعام يعطى مذاقاً لطعامنا وتأثيرا مستساغا لشهيتنا ، بينما يقرر الكيميائيون فى معاملهم المجهزة بالأنابيب والمواد والميكروسكوبات والأشعة أن هذا الإسم المستساغ هو فى الحقيقة تجميع كيميائى لإسمين هما الكلور والصوديوم ، وعلى هذا أطلقوا عليه بلغة الكيمياء معبرين عن ماهيته باسم كلوريد الصوديوم، ورغم أن ملح الطعام يتكون من الكلور والصوديوم فله خواص تختلف جذريا عن الكلور وعن الصوديوم .

الكلور غاز سام لونه أصفر يميل للخضرة ! والصوديوم فلز قلوى نشط يفور فى الماء منتجاً حرارة شديدة وأبخرة هيدروجينية قد تنتج فرقعة هائلة فى الهواء إن لم نحسن جمعها بمعزل عن الهواء ، والصوديوم يتفاعل أيضا مع الهواء ، ولو وضعت قطعة صوديوم على يدك ستحدث تأثيرا قلويا ضارا بل وقاتلا لأنسجة الجسم .

أى أنه غاز سام يتفاعل مع قلوى ضار بأنسجة الجسم فينتج لنا ملح الطعام الذى يضفى مذاقا وشهية ، أى أن صفات المجموع لا تساوى مجموع الصفات ، ومكونات الإسم ليست بالضرورة شطرا من الاسم ، فالأسماء التفصلية هى وجود منفصل له كيان الاسم بكل معناه تماما كالإسم الكل .

الكل هنا مختلف عن الجزء ، وقد يشابهه فى قليل أو كثير ولكن ليست هناك علاقة مباشرة بالضرورة ، بل العلاقة غير مباشرة فى إطارها العام ، ولها صفة الامتزاج وتكوين الجديد .

نعم .. إنها الأسماء ، هبة خالق الأرض والسماء ، تحمل فى طياتها قبس من الخلق هبة لخليفة الله فى الأرض، حتى يسعى مسئولا حاكما بأمر الله فى الطبيعة التى خلقها الله.

وأين شفافية الزجاج من عتامة السليكات (وهى الرمل) الداخلة فى تركيبة ، والألوان كما يثبت العلم هى ترددات موجية معينة ، لكل لون تردده الذى يؤثر على عين الإنسان فيدرك هذا اللون الجميل ، فالوردة الحمراء الجميلة ليست حمراء ولكن الجزئيات المكونة لأوراقها مرتبة ترتيبا محسوبا يعكس ترددات محددة لموجات الضوء الساقط عليها ، فتحدث التأثير اللونى الأحمر عندما تراها العين ، فهذا الذى نسمية أحمرا إن هو إلا ترتيب معين ومسافات معينة لكتل ضئيلة متراصة ، فالاحمرار القانى الجميل أصبح مسافات ونظام وأرقام ، وشتان بين الوجودين .

والأرض مثلا لها قطر وكتلة وحجم وحرارة ومغناطيسية ، ثم هى تتصرف مع المواد التى على ظهرها بأسلوب محدد ، فهى تجذب هذه المواد اليها ، وهو ما نعبر عنه بالجاذبية ، ولأن هذا التصرف مميز محدد فقد فصل مفهوم الجاذبية عن الأرض ، وصار إسما يعبر عن وجود معنوى قائم بذاته ، ولم تعد الجاذبية تفاصيل لإسم الأرض فقط ، بل أمكن دراسة جاذبية القمر والشمس وغيرها من الأجرام السماوية ، وصارت الجاذبية مبحثا عاما يرتبط بالأجرام السماوية أيا كانت ، وأصبحت الجاذبية مجهولا يحتاج لإدراك تفاصيله للإجابة على التساؤلات الأساسية : كم ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ .

ولا أحسب أن علما ما أحاط بإسم ما فى حدود مجال ما ، فلإن كانت الجاذبية تحكمها هذا القانون الذى قدمه نيوتن ، والذى تحسنت صورته فيما بعد ، فبقى أن نسأل : لماذا ؟ وكيف؟ ومهما قيل من أمر هذا الجسيم الصغير والمسمى بالجرافيتون ، والذى تشعه كل المواد فى الكون والذى يقيم التجاذب بينها كما لو كان حبلا يجذب الأجسام للأجرام السماوية فإنه تبقى تساؤلات كثيرة عن كيفية انبعاث هذا الجسيم وخواصه .

وهكذا أطللنا من خلال الأرض على الجاذبية وعلى الجرافيتون وفى الحقيقة فإننا سنطل على عدد من الأسماء ، بل إننا نقول إننا من خلال إسم واحد يلزمنا أن نطل على كل الأسماء أن أردنا فهما لهذا الإسم الأصلى ! .

أى أن مفردات الإسم اللازمة لفهمه هى أسماء فى عالم المعرفة الفسيح ، فنحن نخرج من إسم لإسم ، ونميز تفاصيل وخواص الأسماء بأسماء أخرى ، فالشجرة فى بدائية فهمها صارت جذراً وساقا وفروعا وأوراقا ، ثم مالبثت أن صارت خلايا وعصارات ، وارتبطت حواكمها بالخاصة الشعرية والتمثيل الضوئى ، وصارت مبحثا لا نحسب أنه ستأتى لحظة معرفة صادقة نقول بأننا أتينا على الشجرة فأدركناها وعرفناها ! ، فلكى نعرف الشجرة معرفة صادقة كاملة لابد أن نحيط بالكيمياء والفيزياء تماما ، ونماء الشجرة مرتبط بالرياح والمناخ وظواهر الطبيعة ، وجذرها مرتبط بتراكيب الأرض ومكوناتها . وتورث

صفات الشجرة يرتبط بعلاقات رياضية لترتيب مكونات خلايا الوراثة فيها ، وبقاء الشجرة يرتبط بتأثرها بالطاقة الشمسية وطاقة الرياح بل وحتى الطاقة الكهربية ! .

وهكذا فلكى نفهم الشجرة ونعرفها تماما علينا أن نفهم علوم الكيمياء والفيزياء والرياضيات والطاقة والحياة و ... ، بل وعلوم الفكر والفن والفلسفة والحق والخير والجمال، فكم من ألوان فى الشجر وكم من جمال فى بهائه ، وكم من معنى فى تنسيقه ، وكم من فكر فى تحديد أماكن زراعته ، وكم من هدف فى عمل مصدات منه لتيارات الصحراء وكم .. وكم ..

وعلى هذا فلكى نعرف الشجرة علينا أن نعرف العلم كله .

فلكى نفك مكنون اسم واحد علينا أن نفك مكنون جميع الأسماء ، لكأنها بلغة الرياضة هى مالا نهاية من المعادلات كل منهم يحتوى على مالانهاية من المجاهيل ، وكل اسم يحتوى مكنون وحواكم وجوده من اسماء لانهائية ، وكل اسم مرتبط ببقية الأسماء جميعا ، لا ترقى معرفتنا به إلا ببقية الأسماء ، فلكى نعرف هذا الوجود علينا أن نعرف كل أسماء هذا الوجود .

ماذا لو لم يعرف الإنسان الأسماء ؟ :-

هب أننا لا نسمى ولا نميز ما نسمى ولانتعامل بأسماء ، فأنّى لنا أن نتعارف على مبحث يلزمنا سبرأغواره مثل "الذرة" و"الالكترون" ، أىُّ ذرة سنبحث وأىُّ "جاذبية" سندرك ، وكيف نضع على منضدة حديثنا مجالاً للمعرفة أو مبحثا للمناقشة ، ومن ذا الذى يمكنه أن يخبرنا بوجوب الاستعداد لأزمة "الطاقة" أو خطر" الفيضان" ، أنّى وجود معنوى سيكون فى عقولنا لهذه الأسماء التى نعرفها الآن .

إننا لو تصورنا أننا لا نعرف الأسماء ، وليس لها وجود فى عالمنا ، فإننا سنرى الطبيعة على انها كُلٌّ كاملٌ بل وشىء معنوى واحد ، لانملك أمر استغلالها والتدخل فيها إلا إذا فهمناها كلها دفعة واحدة وبغير مفردات ، وسنسعى فيها طلباً لغريزة البقاء بدون تأثير عقلانى فيها ، ستصبح كلها إسم الأسماء الذى لا نعرفه ، ولا نملك أمر التركيز على بعض منها لا يتصل مباشرة بغريزة البقاء ، كتراب معين هو "خام" لحديد أونبات معين يحتوى "دواء" لمرض ، ولأن الله حبانا بالأسماء فنحن قد عرفنا الخام واستخلصنا منه الحديد وعرفنا النباتات الطبية واستخلصنا منها الدواء ، وعرفنا الكثير ، لتطوير حياتنا وتحسين ظروف معيشتنا بما أعطانا الله من فضل تعليم الأسماء .

ولو أننا لانعرف الأسماء وسعينا فى الأرض كوجود واحد يعلو ادراكنا بإسم واحد نجهله، فلن نكون سوى متحركين بالغريزه المباشرة ، لا نملك إدراكاً خلاقاً أو طريقاً عقلانياً لمتطلبات وجودنا ، ستصبح الغريزة هى الأساس ، ونصبح كالحيوان .

الفصل الثالث

نظرات فى العلوم التجريبية ودور الأسماء فيها

لست هنا قاصداً لأن أعرض لمنهج العلوم التجريبية ، وأسلوب الاستقراء فيها ، ولكنى أحاول التجول فى هذه العلوم ، لألتقط بعضاً من دور الأسماء فيها ، وأحاول الوقوف على المواطن التى ظهرت فيها قيمة الأسماء وأثرها فى هذه العلوم .

بين الاسم والتعريف :

مرت الحضارة الاغريقية بعصر السفسطائيين الذين أجادوا الحديث المتشدق المبهر دون التركيز على المحتوى المقصود ، ولما جاء سقراط ثار على هذا الوضع ، وحاور الناس فى أروقة أثينا، ونادى بمنطقية الحديث وتحديد المفاهيم ، وقدم للبشرية مفهوم التعريف ، وهو ما يعنى الاتفاق على المفاهيم وتوصيفها بشكل محدد والالتزام بهذا التوصيف دائماً .

ولاشك أن العلوم الحديثة كلها تأخذ بمفهوم التعريف ، فتبدأ بالتعريف لمفرداتها حتى تتوحد لغة الحديث ، فيفهم الدارس المقصود من العبارات فهماً محدداً لا يختلف فيه أحد.

وإذا نظرنا فيما بين الإسم والتعريف لوجدنا أن التعريف هو المحاكاة المبسطة للإسم ، فالتعريف يلتزم بكم معين من المعلومات نسردها عن المُعَّرف ، بينما الاسم يطلق على المسمى الحقيقى في الواقع بكل تفاصيله وتشابكاته مع غيره من المسميات ، والتعريف يسمى واقعاً خيالياً لا واقعاً حقيقياً ، فنحن نأخذ من الواقع الحقيقى شطراً يسيراً معلوماً فنضعه تعريفاً ، وبهذا نكون قد عبرنا عن حقيقة مبتورة غير ممثلة للواقع ، فتصبح خيالاً بدائياً يمثل مبلغ علمنا عن ذات المسمى.

ولنضرب لذلك مثلا بتعريف الالكترون فنقول :

"الالكترون هو كل جسيم سالب الكهربية يدور حول نواة الذرة ويمكن للذرة أن تفقده أو تكتسبه أثناء التفاعل مع ذرات أخرى أو تحت تأثير الطاقة" ، هذا التعريف أحصى قدراً من المعلومات التى نعرفها عن الالكترون ولكنه لم يذكر كل المعلومات ، ذلك أن علمنا بالالكترون نفسه محدوداً ، ومبلغ علمنا أنه لا يوجد جسيم سالب آخر يدور حول نواة الذرة .

ولذا فنحن نتحدث عن الكترون خاص بنا ، كما عرفناه وخبرناه ، وقد يحدث أن يتغير التعريف بمرور الزمن ، إذا تحدثت معلوماتنا وزاد فهمنا ، غير أننا بالتعريفات نصنع عالماً من المسميات الصناعية الخاصة التى تحاكى الوجود ، فنقيم علاقات المنطق بين

مفرداتها، حتى يمكننا أن نستفيد من معلوماتنا عن هـذه المفـردات أقصى استفادة ، وحتى يمكن أن نصمم التجربة التى تمكننا من فهم الجديد عن هذه المعرفات .

ولاشك أن ابتكار التعريف كان له دور فعـال فـى تقـدم العلوم الطبيعيـة والإنسـانية على السواء ، فقد ساهم فى تحديد المفاهيم والخواص ، وجعل خطوات البحث أكـثر سـرعة وأمضى تأثيراً .

ولو أننا كنا لا نعرف الأسماء ، فأى إدراك سيمكننا من الأخـذ بأسلوب التعريـف ، ولن يكون لهذا التعريف وجوداً فى عقولنا ، لأن الأصل الذى بنى عليه غير موجود .

تقسيم العلوم التجريبية :

من الصعب علي دارس ما أن يتجول فى العلوم التجريبية كل علي حـدة ، فلـم تعـد العلوم التجريبية مواضيعاً متباعدة كل يعالج لشأنه ، فهى ممتزجـة امتزاجـاً ، ولعلنـا نقـول أن التقسيم الذى وضعه العلماء لهذه العلوم لم يكن أساساً لاختلافها عن بعضها وتباعد مباحثهـا وانفصالها ، ولكنه كان تبسيطاً لعظم منطقها وعمق علاقاتهـا ، فكـان مـن الصعـب تناولهـا مجتمعة فى نسيجها المتشابك .

ولعلنا نذكر جاليليو جاليلى حين قدم مبحثه الشهير "علمـين جديديـن" كـان يقصـد تبسيط حدة هذا العمق والتشعب الذى انتهجته الفلسـفة ، فـأراد قسـمتها إلى علـوم تجريبيـة وعلوم فكرية إنسانية ، فقد كانت الفلسفة تبحث فى كل اتجاه رغبة فـى لم شمـل الحقيقـة ، وصاروا ضحاً أن الحقيقة بحر واسع وأنى لفيلسوف ما أن يجمع هذه الشتات المتشـعبة معـا ، فكانت صيحة التقسيم اعترافاً بعظم المسئولية وتبياناً لعمق الحكمة ، حتى تتضافر الجهود فـى جمع مفرداتها .

ولعلنا نتناول قضية تقسيم العلوم التجريبية على أنـه تقسـيم لا تصنيـف ، لأن العلـوم التجريبية فصلت بنودها متداخلة دونما تصل لتصنيف محدد لأبـواب الحقـائق العمليـة ، فمـن الصعب أن تضع فـاصلاً بـين علـوم الكيميـاء وعلـوم الفيزيـاء المتداخلـة ، أو أن نضـع علـوم الحيـوان منفصلـة عـن علـوم النبـات ، أو حتـى نضـع علـوم الجيولوجيـا بعيـدة عـن الفيزيـاء والكيمياء ، وصار التشريح علما يدرس الكائنات الحية كلها ، وعلوم الخلية تتناول الأجسـام الحية بأسس عامة ، وهى تتنـاول الكيميـاء والفيزيـاء فـى دراسـة التغيرات التـى تحـدث فـى الخلايا، بل إن التقسيم الأصلى لعلوم تجريبية وعلوم فكرية تاريخياً وضع الرياضيات فى قائمـة العلوم الفكرية ولا أحسب دارساً للكيمياء أو الفيزياء اليوم إلا وألم بالرياضيات أكثر مما يلـم زميله دارس علم النفس أو علم الاجتماع ، بل هذه العلوم الاجتماعية الأخيرة صارت تعتمد على التجارب العملية والاحصاء والرياضيات فى الآونة الأخيرة ، وصـارت كـل العلـوم آيًا

كانت تستقى من بعضهـا منطـق تناولها ودراسـة مفرداتهـا ، وكـأن التقسيم الـذى أفرزتـه الفلسفة صار يحاول لم شتاته عودا للفلسفة من جديد ادراكاً لكلية الحقيقة وتضافر مكوناتها فى نسيج الحكمة الكاملة التى تحمل عمق التفكر من كل نوع .

قسم الإنسان العلوم لعظم مسئولية فهمها دفعة واحدة ، فعرَّفَ لها مفردات منفصلة سمَّاها بما أعطاه ا لله من فضل إطلاق الأسماء ، فكان قادراً علـى أن يـدرك شيئاً مـن الحقيقـة المخففة ، وخير لك أن تحمل إنتاج حقلك على أحمال من أن تحمله دفعة واحـدة فـلا تقـوى دابتك وربما سقط حملك وتلف ، وكان لزاماً على الإنسان فى بحثه عـن الحقيقـة أن يـوزع مجهود الفهم على عدد كبير من الناس فاستخدم التعليم الربانى العظيم ، وابتكر التخصـص ، فكان علماء الكيمياء وعلماء الفيزياء وعلماء الحياة وغيرها ، هذا المدخل الإنسانى يضطلع به خليفة الخالق حتى يتمكن لما خلق له فيتفكر فى خلق ا لله ويعـرف ا لله فـى حكمـه خلقـه ، وهى حكمة عظيمة لا تعرف بغير جهاد وتفكر وعناء ، وها هى الأسماء سهلة يسيرة لديـه ، يسعى بها فى بحر الحكمة العظيم ، وكم عرفنا وكم أنجزنا بعد هذا التقسيم ، عرفنـا الكثير وأنجزنا الكثير لحاجاتنا بل ولترفنـا ، لأن ا لله خلـق الكـون حقيقـة خصبـة شاسـعة ، يكفـى إدراك القليل لانجاز الكثير ، ولولا معرفتنا بالأسماء وسعينا بها مـا تمكنـا مـن إدراك المفـردات الأولية ، ولا تمكن علماء التجربة العملية من الاعتكاف لدراسة هبأة يسيرة من قانون المادة ، فيخرجون علينا بما ينقل حياتنا نقلات واسعة ، تحقق لنا خلافة الخالق العظيم .

ونظرة على تقسيم العلوم التجريبية - قسمها الانسان تقسيما محـدودا ، كمـا يكسـر الحجر الكبير إلى حصوات ، وفيما يبدو لنا فإن المعرفة التى نخرج بها من الحقيقة المجمعة تزيد بفهم جديد على فهم المفردات الصغيرة ، لأن ارتباط الحقائق تحكمه حقائق جديدة ، ولعلنـا نقرر أن فهم الانسان يعتمد على حجم الحقيقة التـى يدرسـها ، وبمقـدار قدرتـه علـى إدراك علاقات أجزائها التفصيلية كبعد جديد لادراكه لها ، تماماً مثل الجسم فى الفراغ ذى الثلاثـة أبعاد واختلافه عن الشكل المسطح فى بعدين ، ومن عظمة الأسماء أنها تحقق التعريف بأشياء لها تفاصيل وصفات كثيرة ، فهى لا تفتت المفهوم الذى تتناوله ، بل على العكـس تعبر عـن حجم عقلانى له محتوى هائل من المعلومات ، ولذا فالإنسان عندما يقسـم الحقيقـة الجسمية إلى مفردات مسماة فإن طبيعة الأسمـاء ذاتهـا تفـرض وجـوداً للمفـردات لهـا حجـم عقلانـى مفيد، يمكن بتناولها أن تعطى نتائج نافعة، ولذا فيمكننـا أن نقـول أن فهمنـا للحكمـة يعتمـد على المقدار النهائى لكل مفردة منها ، وكلما كانت المفردات كبيرة ، وكـانت قابلـة للفهـم والتناول كلما كان الفرق بينها وبين الحقيقة المجمعة الأصلية أقل ، وكلما كان فـرق معرفتنـا للمفردات عن المعرفة المطلقة للحقيقة المجمعة يسيراً. والأسماء تحمل صفة اللانهائية فى صفات مسمياتها ولذا فهى تحقق تماسك المعرفة وعدم تفتيتها وتأكيد منطقية تفاصيلها .

مقاومة الطبيعة للمعرفة :

لاشك أن العلوم التجريبية قد حققت رصيداً ملحوظاً من المعرفة فى القرنين الأخيرين، واتضح من تراكم هذه المعرفة بعض الخصائص المرتبطة بها ، فالمادة فى حجمها وكتلتها المعتادة التى فى متناول حياة الانسان تتبع قوانين يمكن للإنسان الكشف عنها ودراستها وفهمها ، ولكن المادة ان كبرت لحدود كبيرة وتباعدت مسافاتها لحدود كونية فإنها تتبع قوانين أخرى أكثر عمومية ، ومن الناحية الأخرى فالمادة إن صغرت لكميات ضئيلة ولمسافات متناهية فإنها تتبع قوانين أخرى يحكمها قلة التحديد ، وتتحول لاحتمالات ويكون القياس المعملى صعباً وغير دقيق وتتحول نتائج التجارب العملية إلى احتمالات منفردة ، وتوضيحا لهذه النقطة فإن الأجسام الدقيقة مثل الالكترون مثلا تحكم صفاته قانون عدم التحديد الذى قدمه هيزنبرج ، وهو يقدر الخطأ فى قياس سرعة الالكترون ومكانه فى حالة ما إذا كانت وسائل القياس متناهية الدقة ، ومبدأ عدم التحديد فى قياسات الأجسام الصغيرة يعتبر من الأسس الكونية وهذا يجعلنا نقرر أن الحقيقة تأبى أن تعرف ، فهى تقاوم وسائل قياسها ودراستها ، وتزداد مقاومتها كلما تعمقنا فى فهمها ومحاولة سبر أغوارها ، فكلما تعمقنا فى الاتجاه الجسيم لدراسة الأجرام السماوية والابعاد الشاسعة أو تعمقنا فى الاتجاه الدقيق لدراسة الجسيمات الأولية التى تتكون منها المادة تصعب الدراسة ويزيد الغموض ، ويتضح ضحالة فهمنا للمادة فى ظروفها المعتادة التى فى متناولنا ، حتى صار فى إدراك العلماء أن الحقيقة واحدة ، ولكنها عظيمة العمق بعيدة الغور ، تشمل المادة فى كل أحوالها حسيمة أومعتادة أو دقيقة ، ولكننا نرى صورتها الخاصة فى الحالة المعتادة ، حيث لا تعمل مقوماتها الجسيمة وحيث لا تعمل مقوماتها الدقيقة ، نعم إن الحقيقة نسيج واحد هائل العمق والمعنى ، تحتاج لعناء وجهاد وتفكير ، وقد وجهنا القرآن الكريم للتفكر أى التفكير العميق : ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار**﴾ (سورة آل عمران - الآية ١٩١) .

هذا التوحد والعمق فى تصرف المادة يتضح يوما بعد يوم ، منذ أن قرر العلم الحديث أن العالم الطبيعى عالم ميكانيكى رياضى ، يحكمه النظام والقياس والمنطق ، وفيما نعتقد أن الله علم آدم الأسماء باعتبارها الأسلوب المتوافق مع طبيعة الوجود العميق المتوحد الممتنع ، والأسماء عميقة متوحدة ممتنعة ، الأسماء عميقة لأنها تعبر عن معلومات لا نهائية تدل على وجود بذاته بطريقة يسيرة غاية فى البساطة ، وهى متوحدة لأنها دائماً لفظ معبر مهما كان شخص المعبر عنه ، سواء أكان مادياً أو معنوياً وهى ممتنعة لأنها لو لم يعلمها الله لآدم ما تعلمها ، وما تمكن منها ، فهى قمة السهل وقمة الإمتناع ، وهذا هو الاعجاز الذى قالت عنه الملائكة ﴿**سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾ .

أى أن الوسيلة التى أعطاها الله لنا - وهى الأسماء - وسيلة متوافقة مع المهمة التى نحن مقدمون عليها ، مهمة الخلافة فى الأرض ، فالأرض وما عليها وما حولها من خلق الله، والأسماء علمها من عند الله ، وهما هدف ووسيلة ، متوافقان لأن كليهما من عند الله ، خلقهما ليتوافقا مع سعى الإنسان ، ليتمكن من المهمة التى خلق لها .

منجزات العلم ودور الأسماء فيها :

الأسماء هى الوحدة الأساسية فى مفردات الفكر البشرى التى تمكنه من السعى فى عالم المعرفة واعياً مجدداً ، مستخلفاً لله فى الأرض ، ولو استعرضنا منجزات الإنسان فى الأرض لوجدنا أنها ناطقة بخلافته لله ، فهو قد استخرج كنوز الأرض ، ووظفها لصالحه ، فصنع مسكنه وملبسه ووسائل انتقاله وما يقيه حاجته بل وما يحقق رفاهيته ، ولو دققنا فى هذه المنجزات عَلّنا نستشرف شيئاً من أسلوب عمل الانسان وتدخله فى الطبيعة لوجدنا أنه يقسم المواد إلى مفردات معرفة اليه بأسمائها ، لكل مفرد منها خصائصه الخاصة ، وهو يعيد مزج هذه المفردات ليحصل على خواص جديدة ، قد تختلف تماماً عن خواص المكونات .

الإنسان يرى حوله الماء والتراب والاحجار والهواء ، ثم يرى النباتات والحيوانات ، ثم يرفع رأسه للسماء ليرى الشمس والقمر والنجوم ، بدأ الانسان بتمييز هذه المفردات عن بعضها ، والتعامل معها بخواصها ، ثم ما لبث أن عرف مفردات تفصيلية لكل واحدة منها ، فلم تعد الاحجار و لم يعد التراب كمكون لجسم الأرض شيئاً واحداً ، بل راح يميز المعادن والخامات وأنواع الاحجار الجيرية والرملية والجرانيتية والخام ، بل والاحجار الكريمة ، تعددت المفردات وصار لكل مفرد من المفردات اسمه الخاص ، وراح الإنسان يبحث عن المفردات التفصيلية التى تكون هذه المفردات الكبيرة ، وهكذا فرضت فكرة الذرة نفسها كمفرد أولى تتكون منه المواد ، وجاءت نظرية دالتن عام ١٨١٠ لتتحدث عن الذرة والجزئ، وكيف تتكون المواد المركبة من العناصر الأساسية ، وهى نفس النظرية التى تحدث عنها أرسطو فى فلسفته عن المادة ، وكيف أنها تتكون من مفرد أساسى سماه الذرة ، يكمن فيه سر هذا التباين العظيم فى خواص المواد ، وأصبح الهواء مكوناً من نيتروجين وأكسوجين وبعضاً من ثانى أكسيد الكربون وربما الهيدروجين ومكونات أخرى ضئيلة ، وصارت الشمس والقمر والنجوم فى إدراك الانسان مكونة من نفس المفردات التى تكون المواد الأخرى من أشجار وأحجار وماء ، وبدأ الانسان يفكر فى تكوين مفردات جديدة من إقامة التفاعل بين ذرات مختلفة ، قد لا تكون الطبيعة قد أقامت هذا التفاعل ، أو قدمت هذا الاتحاد فى تكوينها الغفل ، وراح يقدم لنفسه مواداً جديدة ، ينتقى منها ذات الخواص المفيدة، فأنتج البلاستيك والبنزين والزجاج والورق والسبائك وغيرها ، فالإنسان قد فصل المكونات وأعاد تركيبها لحسابه ، ليحصل على خواص نافعة جديدة ، تصلح لتطبيقات

مفيدة لحياته ، وهذه القدرة على الفك والتركيب . هذه القدرة على التحليل والتجميع تعتمد على خاصية وصفها الله فى المادة . حتى تكون سهلة طيعة فى يد الأنسان . لكى يسخرها الانسان لصالحه . هذه الخاصية يمكننا أن نضعها كما يلى :

"صفات المجموع لا تساوى مجموع الصفات" .

فإذا أقمنا اتحاداً بين المفردات أ ، ب ، جـ ، فإن المفرد الناتج لا يشترط أن تكون خواصه هى مجموع خواص أ ، ب ، جـ ، بل ربما يخالفها تماماً . فهو فى الحقيقة يحمل صفات جديدة لا تمت بصلة لصفات المكونات .

والاتحاد بين المفرادت يختلف أسلوبه فهو قد يكون جمعا ميكانيكيا أو مزجيًا أو تفاعلياً .

الجمع الميكانيكى :

نجمع قطع الخشب ، المأخوذة من الشجر ، مع المسامير وهو الحديد المستخلص من الأرض ، والغراء المستخلص من بعض أنواع الشجر ينتج الشباك والباب والسرير والدولاب والكرسى و... وغيرها ، هذه المفردات اتصلت ببعضها بنظام مقصود ، لنكون منها تجميعاً مفيداً، يقدم عملاً أساسياً لايمكن أن تقوم مكوناته منفردة بهذا العمل .

الجمع المزجى :

فى هذا الجمع تختلط المكونات تماماً فلا يبقى المسمار بخصائصه كاملة ليقوم بعمل محدد، بل تمتزج المواد معا ، فيمتزج الدقيق والماء لتنتج العجين ، ويمتزج الماء والبن والسكر لتنتج القهوة ، ولعل هذه الأمثلة تقليدية مباشرة ، فهناك السبائك التى تصنع من مزج مصاهير الفلزات لتكون سبائك ذات خواص جديدة فالحديد النقى المنصهر إذا مزج بما يساوى ١٨٪ من مصهور الكروم وما يساوى ٨٪ من مصهور النيكل تتكون سبيكة الصلب الذى لا يصدأ "ستينلس ستيل" المستعمل فى المطابخ ، والذى لا يكون الصدأ البنى للحديد العادى ، وهو صدأ فضلا عن أنه يلى المكون الحديدى فهو ضار بالانسان ، وهوالذى جعل الانسان لا يستخدم الحديد العادى فى الطهى وصار يستخدم هذه السبيكة المكونة من الحديد والكروم والنيكل لصنع أدوات طهيه .

فإذا كان فى الجمع الميكانيكى تكون الأجسام منفصلة عن بعضها تماماً ولكنها موضوعة فى مكانها المحدد لعمل محدد فإنه فى الجمع المزجى تمتزج ذرات المكونات ، ولكن كل ذرة منفصلة عن الذرات الأخرى ، فيتكون منهم كل جديد يحمل خواصاً جديدة ، وهذا يجعلنا نتفهم الجمع التفاعلى الذى تمتزج فيه الذرات نفسها ، وتكون جزيئات مكونةمن الذرات المتفاعلة ، وفى هذا النوع من الجمع للمادة تنتج خواص جديدة تماماً كما سيتضح فى البند التالى .

الجمع التفاعلي :

وفيه تتحد المكونات الدقيقة "الذرات أو الجزيئات" لتكـون جزيئـات جديـدة ، ذات صفات جديدة ، تختلف عن صفات المكونات الأصلية ، فمثلاً ملح الطعام يتكون جزيئه مـن ذرة الصوديوم وذرة الكلور ، ولذا فهو يسمى فى علم الكيمياء بإسـم كلوريد الصوديوم ، نسبة لتكونه من الصوديوم والكلور ، والصوديوم فلز نشط يتفاعل مع المـاء والهـواء ، وينتج مركبات قلوية ضارة بجسم الإنسان ، فهو يكون الصودا الكاوية مع الماء ، أمـا الكلـور فهـو غاز سام ، ومع ذلك فتفاعل الصوديوم مع الكلور ينتج كلوريد الصوديوم ، وهوملح الطعـام الذى نستخدمه فى طعامنا يومياً ، وليس له صفات الصوديوم ولا صفات الكلور .

ولعلنا نقول بأسلوب الدين الإسلامى الحنيف أن الإنسان خليفة للخالق ، ولـذا فهـو صانع فى أرض الله يستخرج من ذات المواد مواداً جديدة فى خواصها ووظيفتهـا ، ولكنهـا ليست جديدة علـى الأرض بمنطـق الخلـق مـن العـدم ، بـل هـى جديـدة على الأرض بمنطـق خواصها ووظيفتها الجديدة ، يـا لهـا مـن هبـة وهبهـا الخـالق لخليفتـه ليستحق الأستخلاف وليمتثل للحساب فيما قدمت يداه ، وهـل هـو استغل النـار لخـير النـاس أم لضررهـم وهـل استغل هذه المواد وهذه المصنوعات التى مكنه ربه منها لصالحه وخيره أم لشره وطمعه ونفسه الآثمة .

فالإنسان يعيد ترتيب الأشياء ، يعيد تنظيم المكونات ، فيخرج على الدنيـا بـالجديد . والجديد قد تستخدمه خيراً كله أو شراً كله أو بين بين ، وعليـه أن يوظفـه بعقلـه وضمـيره ونفسه ، فهو قد يدمر أخيه الإنسان بما صنع من بارود وبما صنـع مـن مفرقعـات ، وهـو قـد يمهد أرضه بذات المصنوعات ، لا شـك أن العقـل الواعـى يفـرق بـين سـبيل الخـير والشـر ، ويعتبر حرية الإنسان التى وهبها الله له لتسخير الطبيعة كيف شاء برهانـاً علـى حسـابه يـوم القيامة ، حيث لا يستوى الذى سلك الخير مع الذى سلك الشر .

قال تعالى : ﴿**يؤمنون بالله واليوم الآخر ويـأمرون بـالمعروف وينهـون عـن المنكـر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين**﴾ .(سورة آل عمران الآية ١١٤) .

وعلى هذا يمكننا أن نقول ان الإنسان أقام معظم حضارته المادية معتمـداً علـى أعـادة ترتيب مكونات المادة ليحصل على صفات جديدة ، ينتقى منها ما يصلح لحياتـه ووجـوده ، وحول هذا الإطار أقام الإنسان مفردات عقلانيـة تعبر عـن هـذا الـترتيب ، وهـذه المفـردات العقلانية هى مجموعة من الأسمـاء يعبر بهـا عـن تدخلـه فـى الطبيعـة ، فهـو يسـمى العنـاصر الأساسية ، وهو يميز بين طرق ترتيبها ونواتجهـا بأسمـاء يطلقهـا ، تعرفـه بـالموجودات الماديـة والمفاهيم العقلانية ، أى أننا يمكننا أن نقول أن الإنسان يسعى بالأسماء أسماء الأشياء والمعانى، بل يتعامل مـع الأسمـاء على عموميتهـا دلالـة علـى المفـاهيم العقليـة ، فمدخـل فصـل المـادة

لمكونات هو سعى لإطلاق الأسماء ، وهـو اكتشـاف لجوانـب مـن حكمـة ا لله فـى خلقـه ، وترتيب المكونات هو تكوين لصفات يعرفها بذاتها وشخوصها ، فنعم الإنسان بنعمة النطـق الذى يعبر عن الأشياء والمعانى ، دون استحضارها فصار ناطقاً بالمنطق متحدثا بالحقيقة باحثا عنها فى الموجودات والمفاهيم .

نعم إن التيار الكهربى القاتل ينير مصباح الكهرباء ، ويرسل صوت المذياع بالأخبـار - والأحوال ، وهو نفسه التيار الكهربى الذى عرفه الإنسان وميزه كحركـة لهـذه الأجسـام الصغيرة المسماة بالالكترون داخل الموصلات الكهربية ، متحركا فى رحلة موجهة من قطب سالب إلى قطب موجب ، أدرك الإنسان وميز أن التيار الكهربى هو مسمى مركب لحركـة مرتبطة بإلكترون بين قطب سالب وقطـب موجـب ، وكلهـا مسـميات ممتزجـة فـى نسيج المعرفة بحكمـة ا لله فـى خلقـه ، فالإنسـان لم يصنـع الألكـترون ولكنـه حَضَّرَه ، أو قـل إنـه أحضره من مسكنه داخل الذرة ، ففصله منها فوجده يتحرك بين الأقطـاب كصفـة أساسـية فيه خلقها له ا لله ، فلما اكتشفها الإنسـان اعتبره مشـحونا بشـحنة سالبة ، لأنـه ينجـذب للشحنة الموجبة، ولمـا عـرف الإنسـان الشـحنة الكهربيـة وجدهـا نوعـان لا ثـالث لهمـا ، فسماهما الشحنة السالبة والشحنة الموجبة ، ووجد خصائص كل شحنة ثابتة كما هى كلما قصدها وهذه من حكم ا لله فى خلقه أن يجعل الصفات الأساسية ثابتـة مـع الزمـن ، فكلمـا انتزعنا الكترونا وجدناه سالباً ، وما أعظم هذه الهبة الإلهيـة التـى تمكـن الإنسـان مـن اطـلاق صفة السالبية على الالكترون فى كل الأحوال ، إنه النظـام الـذى يمكـن الإنسـان مـن اعـادة الترتيب ، وفى كل مرة يقيم نفس التجربة تنتج نفس النتيجة ، فأصبح التوحد أساساً لسلوك المادة ، فهى لا تتصرف بهوى بل هى تتصرف بخصائص واحدة ثابتـة ، تمكـن الإنسـان مـن تسخيرها وتحويلها لصالحه ، وأنّى لهذه المادة أن تكون بهذه الخصيصة لتوحد بها فى الكون دون معنى ، أو دون قيمة ، فلا يجعل ا لله لها خليفة يسـعى فيهـا مكتشـفاً لهـا ، متفكـرا فـى حكمتها مسخراً لها . ان هذه الخصوبة الغفلة فى الكون تفقد دورهـا ومـبرر وجودهـا إن لم يكن لها دور ، وما أعظم أن يكون دورها هو التفكير فى حكمة خالقها .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿**ربنا ما خلقـت هـذا بـاطلا سبحانك فقنـا عـذاب النار**﴾ (آل عمران الآية ١٩١) .

وهذا التيار الكهربى ينتج من الأقطاب ، فإذا وضعت النحـاس فـى محلـول كبريتـات النحاس، ووضعت الزنك فى محلول كبريتـات الزنـك ، وفصلت بـين المحلولـين بقطعـة مـن الفخار تسمح باتصـال المحلولـين دون امتزاجهمـا اكتسـب الزنـك صفـة القطـب السـالب ، واكتسب النحاس صفة القطب الموجب ، فإذا وصلت بينهما بسلك موصل للكهرباء سـرى التيار الكهربى بينهما ، ولا شك أن فارادای ومن بعده دانيـال عندمـا اكتشـفا هـذه الحقيقـة

كان طبيعيا عليهما أن يضعا نصب عينيهما اسمان أساسيان مرتبطان بهذه التجربة ألا وهما "الكهرباء" و"الكيمياء" ، وخرج علينا فارادای بقوانينه الأساسية فی علاقة الكهرباء بالكيمياء ، وكيف يمكن أن نحصل على الكهرباء من جراء حدوث التفاعل الكيميائی إن كان التفاعل تلقائياً ، وكيف أننا بالكهرباء يمكننا أن نقيم التفاعل الكيميائي الذی لا يحدث تلقائيا فننتج نواتج معينة ، لا تنتج بمفردها إن تركت المواد المتفاعلة معاً بدون كهرباء ، وكان لابد من استخدام اسم "الطاقة" للتعبير عن هذا المعنى البديع ، فصارت قوانين فارادای هی قوانين تحويل الطاقة الكهربية إلى طاقة كيميائية والعكس ، وبدأ العلماء منذ قَدَّمَ فارادای قوانينه عام ١٨٢٤ يبحثون فی عقلانية هذا التحول بين الطاقة الكيميائية والطاقة الكهربية ، وعكف دانيال على تفسير أسباب انفصال الكترون ذرة الزنك عند غمسه فی محلول كبريتات الزنك ، وأسباب الشحنة الموجبة على النحاس المغموس فی كبريتات النحاس ، مما يجذب الالكترون المنفصل من الزنك فيتحرك إليه عبر الموصل ، وأثبتت أبحاث دانيال وكل من تناول الموضوع من بعده أن وجود الزنك فی كبريتات الزنك هو المسئول عن انفصال الكترونات الزنك وأن وجود النحاس فی كبريتات النحاس هو المسئول عن جذب الالكترونات إلى النحاس ، وبهذا صار واضحاً أن ترتيب المواد واتصالها ببعضها ينتج عنه صفات خاصة ، وفی هذه الحالة يتكون التيار الكهربی من هذا الترتيب المقصود . وقد استتبع ذلك دراسة قطبية العناصر فی محاليل أملاحها ، فنتجت السلسلة الكهروكيميائية نسبة للتحول بين الطاقة الكهربية والكيميائية ، ومن هذه السلسلة يمكن حساب فرق الجهد بين قطبين لموقعهما فی السلسلة الكهروكيميائية ، وهكذا أصبحت الكهرباء تولد من ترتيب وضع بعض المواد ملامسة لمواد أخرى ، وهذا يؤكد أن أهم ما يقوم به الإنسان فی تسخيره لمواد الكون هو إعادة ترتيب وضع المواد مع بعضها ، بعد أن فصلها إلى عناصر ومركبات ومعادن وخامات .

وقد ينشأ التيار الكهربی من دوران ملف بين قطبی مغناطيس كما حدث عند اختراع الدينامو وقد اخترعه فارادای أيضاً عام ١٨٣١. وهذا يشير إلى أن الطاقة المغناطيسية والطاقة الحركية تفاعلا معاً لإنتاج طاقة كهربية ، وهكذا فإن ترتيب وضع الملف والمغناطيس والحركة بينهما هو نظام مقصود ينتج عنه نتيجة مقصودة هی تولد التيار الكهربی ، وصار معلوماً أن الطاقة المغناطيسية والطاقة الحركية تنتج قوة قادرة على تسيير الإلكترونات فی اتجاه محدد ، عبر عنه فلمنج بقاعدة اليد اليمنى ، وصار مفهوماً من اتجاه حركة الإلكترونات أن القطب السالب هو الذی تبدأ منه الحركة وأن القطب الموجب هو الذی تنتهی إليه الحركة .

وهكذا أصبح التيار الكهربى باختلاف وسائل توليده هو شئ واحد عبارة عن تحرر الالكترونات من ذراتها وحركتها من قطب سالب إلى قطب موجب ، وبهذا صار له هذا التعريف المحدد بحركة الالكترونات فى الموصلات ، وكما قدمنا أن التعريف هو التعبير البشرى المناظر للأسماء ، وهو يدل على شئ بعينه بصرف النظر عن مسببات تكوينه ، وهذا الثبات فى ماهية الأشياء والمفاهيم هو الهبة التى وضعها الله فى المادة حتى يتمكن الإنسان من تسخيرها ، وادراكها وجوداً محدداً ، ينتج نفس النتيجة بنفس المسببات ، فهذا العالم العقلانى هو عالم أسماء محددة بذاتها ، يعبر الاسم فيها عن متناه فى صفاته ولكنه هو دائماً يحمل جوهراً واحداً رغم اختلاف ظروفه وأسلوب تواجده ، وقد تكون معلوماتنا عنه غير كاملة و لم ندرك من أمره إلا النزر اليسير ، ومع ذلك فنحن نعرفه باسمه وندركه عندما نسمع اسمه ، وفى نفس الوقت لا نلم بكل أمره .

ولعل الفلك والظاهرة الكونية هى أكثر المواضيع التى تغيرت فكرة الانسان عنها على مر الزمن ، بل أن اكتشاف الإنسان لحقيقة الكون تقدم كل يوم جديداً يمثل تغييراً كبيراً لفكرة الانسان عن الطبيعة ، وهذه الاكتشافات الفلكية مثلت قفزات مفاجئة هائلة لم تخل من احداث إضطرابات فكرية للإنسان ، فماذا نظن لو عاصرنا جاليليو وهو يفاجئنا برأيه الرهيب أن الأرض كروية وتدور حول الشمس ، وقد كان علماء ما قبل الميلاد يتخيلون الأرض كدائرة مغطاة بالسماء على شكل نصف كرة ، ومن تحرك على الأرض فى اتجاه الأفق فإنه بعد عناء السفر سيصل إلى نقطة التقاء السماء "الأفق" بالأرض ، وكان العلماء يجهزون المعاول والآلات الحادة ، حتى يمكنهم كسر السماء ، ليروا ماذا وراءها من أرواح وشياطين ، ومن ذا الذى يحمل الأرض وسمائها ومصابيحها المدلاة على شكل النجوم ، هذا الشكل للأرض والسماء كان يمثل المعرفة الفلكية فى الماضى . ورغم أن جاليليو يعد امتداداً لأعمال أولية سابقة لكوبرينكس وكبلر . قد قلب هذا المفهوم رأساً على عقب ، وأصاب رجال الدين والزنادقة بالاضطراب على السواء إلا أن الأسماء الأساسية فى الفلك كالأرض والشمس والقمر والنجوم وخلافه كما هى ، لأنها مفهوم عقلانى لوجود لا يمكن أن ندعى يومًا أننا ألممنا به ، بل نعرف عنه الجديد كل يوم ، وربما يتقلب مفهومنا عنه تماماً ، وهذه هى عظمة الأسماء فى كونها وسيلة أساسية حباها الله الانسان لكى يتفكر بها ويسعى بها ، ومن عظمة الأسماء أنها ليست جامدة مفروضة ، بل هى وسيلة تفكر ومراجعة وإدراك فما أحسب أن الحكمة الإلهية مدركة فى لحظتها ، وما أوجب أن نتفكر ونعيد النظر فى كل شئ إن أردنا سبيلاً للحكمة ، ولذا فالأسماء قد تطلق ثم يتضح أن المفهوم الذى أطلق عليه الاسم منفصلاً بذاته ، فنميزه بمكوناته ، بل وربما نجد أن المفهوم الذى أطلق عليه الاسم لا يوجد أساساً بهذه الصورة ، فنراجع إدراكنا به ، وقد نلغى اسمه ، فالإنسان كما قدمنا علمه

ربه الأسماء لكى يسعى بها مفهوماً معبراً وأسلوباً ناطقاً لإدراكه لمخلوقات الله ، وقد حدث فى التاريخ أن افترض العلماء وجود وسط سمى "الأثير" ، توجد فيه المادة والطاقة على أساس أنه يملأ الفضاء المطلق ، تنسب إليه الحركة والتغيرات ولكن تجربة ميكلسون ومورلى فشلت تماماً فى دراسة نسبية حركة الضوء بالنسبة للأثير ، مما اضطر الفيلسوف الفرنسى "بيونكارا" أن يقترح عدم وجود الأثير ، وأن سرعة الضوء هى الثابت العام فى الكون ، وهذا مما كون حجر الأساس فى النظرية النسبية الخاصة والعامة ، التى قدمها البرت آينشتين ، والتى اعتمدت على عدم وجود الأثير وثبات سرعة الضوء ، وهذه النظرية بدورها فتحت آفاقا جديدة ، فقدمت لأول مرة أن جوهر المادة والطاقة شئ واحد ، وأن كلا منهما يتحول للأخر ، وهما صورتان من صور الوجود.

هذه هى الأسماء ، تعبير مطلق للأشياء والمفاهيم وسيلة سهلة يدركها الإنسان عالماً كان أو جاهلاً حكيماً كان أو سفيهاً أيضاً كان أو ملوناً ، يطلقها ويتعارف عليها ويسعى بها ، وقد يغير اسم هذا الشئ ، وقد يلغى اسم هذا الشئ ، وقد يميز تفاصيل جديدة لهذا الشئ ، نطلق عليها الجديد من الأسماء ، وفى كل لغة للإنسان فى أرجاء الأرض تطلق الاسماء ، وتبدل الأسماء وتعدل ، ففى المجمع اللغوى توضع الأسماء وتناقش وتبدل وتعدل ، فنقول أتحدث إليه فى المسرة ، ونقول أيضاً تتلفنه ، وهذا المذياع أو الحاكى أو الراديو ، وهذا التلفاز قد يصبح التليفزيون وهكذا، أنه التعليم الربانى العظيم ، ليس جامداً مفروضاً محفوظاً ، ليس لك فيه خيار أو قرار ، ولكنه مفهوم وإدراك ، تعليم ربانى نملك أمره ، نصوغه ونقده ونراجعه ، ألسنا تلاميذاً للعلام فلا غرو أن نكون مالكين لأمر الأسماء خلفاء بها معبرين بها عن الحكمة والمعنى فى مخلوقات الله ، هذه الحكمة الواسعة التى نسعى ونكد ونتفكر اقتراباً من قطرة فى محيطها **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً﴾** .

أى إنسان هذا الذى يقترب من بحر الحكمة العظيم فلا يكون مسلحاً بعلم ربانى ، هذا العلم لابد وأن يملك الإنسان أمره ، يتدخل فيه ويصوغه ويعدله حتى يكون قادراً على الاقتراب من بحر الحكمة الإلهية العظيمة ، فأنت إن ذهبت إلى اختبار وظيفة ما لابد وأن تراجع كل ما تعلمت فى تخصصك ، بل إن النابهين سيوصونك بالتدريب على حل بعض المشاكل غير التقليدية التى تحتاج لتصرف وقرار مبنى على العلم والمعرفة ، عندما يكون الموقف جديداً غير موجود فى مراجع المعرفة بتفاصيله .

أنت تفعل ذلك عندما تقف أمام المدير الإنسان ، فبماذا يسلحك ربك لكى تقترب من بحر حكمته العظيم ! . إنها الأسماء الخالصة لنا مالكين لها نستخدمها بكل المقاييس ، وكل التمكن لأن حكمة الله لا يكفيها البحر مداداً ولو جئنا بمثله مدداً .

مستويات المعرفة :

تقدمت العلوم التجريبية فى القرنين الأخيرين تقدما ملحوظاً ، وقدمت خدمات تكنولوجية واضحة ، أضافت للفكر الإنسانى مفردات جديدة ، والأهم من ذلك أنها فتحت آفاقاً للبحث فى اتجاهات عديدة ، جعلت البحث يضيف كل يوم الجديد ، ولعل أهم ما يميز العلم التجريبى أنه يبحث فى حقيقة الموجودات كما هى فى الواقع ، وهذا يؤكد فى كل يوم - فيما نرى - أن الحقيقة الموجودة أغرب من الخيال الذى يسوقه تصورنا ، فالحقيقة الفعلية هى قبس من حكمة الله فى الخلق ، أما الخيال فهو امتداد لحقيقة معلومة ، نطورها بعلمنا القديم ، وأين خيالنا الذى يكرر الحقيقة السابقة فى علمنا بأسلوبنا الإنسانى من الخلق الإلهى العظيم ؟ .

فالطبيعة مكيفة فى دخيلتها لأن تعطى جديداً وأن تعطى مفيداً ، وأ، تكون أكثر معنى لمن يملك تنسيق محتوياتها تنسيقاً متعقلاً ، بل وتصبح خطراً وتدميراً إذا نسقت جهلاً أو شراً مغرضاً ، فهى تحمل فى بنائها خصوبة دورها ومقومات سلطانها ، وهى موجودة مادياً ، وموجودة بتوافق سننها المعنوية الحاكمة لمتغيراتها ، وهذا الوجود يحمل مقومات الاكتمال واللانهائية .

وهذا ما نعبر عنه بأن الطبيعة موجودة كمادة ، وموجودة كقوانين تحكم تغيرات هذه المادة ، وهناك تناسق وتكامل بين موادها وبين قوانينها المتوافقة التى تحكم وجودها وتغيرها ، ومادتها موجودة محسوسة كائنة فى الفراغ ، وقوانينها المتوافقة موجودة بمعناها ونتائج عملها فى تغير مادتها ، موجودة فى عالم الأفكا والمعانى ، وآثارها تحكم عالم المادة والفراغ .

وعلى هذا فيمكن القول بأن المعرفة لها مستويات ، مستواها الأول هو معرفة أولية وصفية عن الموجودات المحسوسة ، ومعرفة على المستوى الثانى ، وهى المعرفة المنطقية التى تعالج قوانين الطبيعة ، وعقلانية وجودها وتغيرها .

هذا الوجود الطبيعى المتسق يحمل مقومات التفاعل المتعقل معها ، فيمكنها أن تكون فائدة ومعنى وخيراً وتقدما ومجالاً خلاقاً ، ويمكنها أن تكون ضرراً وشراً وهلاكاً ، والإنسان هو المتعقل الذى يتفاعل مع الوجود المادى ، والوجود الفكرى فى منطقية نواحيها ، ولهذا نشأ المستوى الثالث فى حكمة استخدام سننها وتنسيق مادتها نحو المعنى ونحو الفائدة .

فالمعرفة الوصفية تصبح ذات قيمة باستنباط المعرفة المنطقية منها ، والحكمة تلى المعرفة المنطقية ، وهى - أى الحكمة - تعنى الفعل بالضرورة ، تعنى الفعل الصالح ، فليس كل فعل من بواعث الحكمة ، بل إن قليلاً من الفعل تحكمه الحكمة ، وما أكثر الفعل غير الحكيم ، والفعل الحكيم ينشأ عنه التغيير الحكيم ، فكل فعل تغيير ، والتغيير الحكيم هو الذى يتحرك

نحو الخير ونحو الفضل والأفضل ، ومن عظمة الحكمة أنها تعنى الفعل النافع الـذى يستخدم المعرفة المنطقية لصالح الإنسان ، والإنسان الذى يسعى بالحكمة هو الذى يحقق الضمير وينفع الناس ويرضى الخالق .

إن هذه القفزة الهائلة بين الجماد والنبات هى قفزة الحياة ، وهذا الفصل للإنسان على الحيوان هو فضل العقل ، هذا العقل الذى وعى الأسماء فتمكن من أنواع المعرفة كلها وصـار مطالباً بتحقيق الضمير .

يقول الحـق : ﴿**ولقـد كرمنـا بنـى آدم وحملنـاهم فـى البـر والبحـر ورزقنـاهم مـن الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾ . (سورة الإسراء – الآية ٧٠) .

الملحدون على أساس العلوم الطبيعية : -

لعل أهم ما أنجزه العلم التجريبى فى القرن الأخير هو تطور نظرية تركيب المادة ، وما تلاها من ظهور الطاقة النووية ، وظهور النظرية النسبية والميكانيكا الكمية ، ثم تطور علـوم الأجنة، علاوة على ظهور أشباه الموصلات وما تلاها من ثورة الإتصالات وأجيال الحاسوب الآلى ، وأخير الموصلات عديمة المقاومة ، وفى كل هذه المواضيع مازال البحث مستمراً علـى أشده ، ومازال المجهول أكبر من المعلوم ، غير أن المعرفة بهذه المفردات أسدت للبشرية كثـيراً من المنجزات أضفت طابعاً مميزاً لعصرنا .

وكما أن العلوم التجريبية لها تأثيرها الواضح على أسلوب الحيـاة ، وتيسـير سـبل المعيشة فإنها قد تصيب البعض بالغرور ، فيتطاولون على الديـن ظنـاً منهـم بـأن هـذا العلـم أساس كافٍ لتفسير الدين ، بل ذهب بعضهـم إلى إهمـال حقيقـة الديـن بدعـوى أن العلـوم الطبيعية كافية لتسيير الوجود وادراكه ، وانه ليست هنـاك حاجـة للاعتمـاد على المسـلمات الدينية .

وهذا المنطق خاطئ فى أساسه ، لأنه تاه فى أحشاء الآلة الميكانيكية للوجود ، وانبهـر بحركة أجزائها المتناسقة ، واغتر بما حباه الله مـن قـدرة ادراك قـانون عملهـا وأسمـاء أسـبابها وثبات عليتها ، فظن أنه يملك أمرها ويدرك كنهها ومنتهاها .

فلو نظرنا إلى فكر الملحدين لوجدناهم يعتبرون نظام الكون ومنطقية وسـببية أحداثـه أساساً لجعله هو الحقيقة كلها بدون موجد لها ، وهذا خطأ جوهرى فى أساس التفكير ، لأن الانتظام البديع فى الكون يدل على أن له غاية ودور ، وثبات قوانينـه يـدل علـى أنـه وجـود غفل فى انتظار إنسان يدركه ويتفاعل معه ، ولذا فهو موجود وله هدف مرسوم وخصـائص مقصـودة ، مثلما ننظر إلى السيارة فنجد أجزاءها مرتبطة متوافقـة ، يعمـل كـل منهـا وظيفـة محددة بذاتها تمثل نتيجة أو سبباً أو تضافراً مع بقيـة الأجـزاء ، ولاشـك أن هـذا كلـه يرجـع

لكون السيارة موجودة لهدف محدد وغاية مقصودة هي نقل الأحمال من بشر ومتاع لمسافات كبيرة بسرعة عالية ، ومنطقية أجزاء السيارة تؤكد براعة المهندس الذى صنعها وتبرهن على وجوده وتميزه العقلى ، ولو أن أجزاء السيارة أوجدت نفسها ورتبت وجودها فأحسب أن كل جزء منها سيحاول أن يكون فعله ومنواله هو الغاية الأساسية ، ولن تتكون من تضافرهم غاية موحدة عالية راقية هادفة .

وإذا نظرنا لموقف الانسان من العلوم التجريبية لوجدناه هذا الإنسان البدائى الذى فوجئ بهذه الآلة تعمل ، فانبهر بها وراح يكشف لنفسه عن سرها ، فيكتشف أن أجزائها متحركة فيظن أنها شيطان رجيم يتحرك ويدمر ، وأنها تحرك نفسها ولا يحكمها قانون ، ثم ما يلبث أن يلاحظ أن حركتها منتظمة ، وأن هناك علاقات بين أجزائها ، وأن أجزائها ليست عشوائية تتصارع معا ، ولكنها متكاملة متوحدة مقصودة ، فيدرك أن دورة الزيت الذى يتحرك فى الأنابيب له غاية فهو لا يجرى رعونة وعربدة ، ولكنه ييسر حركة بقية الأجزاء ويسهلها ، وما يلبث هذا الباحث أن يكتشف وظائف أخرى لكل جزء ، حتى يدرك أنها نظام متكامل ، فإن كان من المنصفين لأدراك أن لها صانعاً وإن كان من الخاملين - أو الجاحدين - سيقول أنها حقيقة بذاتها موجودة لحالها ، وكذلك الإنسان فى إدراكه للنظام الكونى ، فهو تائه فى أحشائه ، منشغل بمنطقية نظامه ، يكشف فى كل يوم الجديد الذى يطور منظوره ، ويؤسس فهمه ، وان هو إلا نظام مقصود يرى فيه نظاماً واتساقاً وهدفاً متعالياً كلما أدرك الجديد عنه . يقول الحق تبارك وتعالى : **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾** . (سورة آل عمران الآية ١٩١) .

وكلمة العلم (Science) أصلها اللغوى المعرفة فى الأصل اللاتيني والعربى ، وقد أرخ العلماء لبداية العلم من عصر الفراعنة المصريين ، الذين كانوا يتبعون طريق المحاولة والخطأ والتجريب ، ثم ظهر فلاسفة الإغريق ، وبدأت الخطوات الجادة من عهد سقراط الذى كان يحاور الشباب فى أروقه أثينا ، ثم تلاه تلاميذه أفلاطون وأرسطو ، وبالرغم من أن المؤرخين العلميين يشيرون لجهود علماء المسلمين وسبقهم لدراسة الفلسفة الطبيعية ، مقارنة برجال الدين المسيحى الذبن أهملوا هذا الجانب تماماً بل وعارضوه ، فإن ما قدمه علماء المسلمين للعلوم الطبيعية لم يبرز على قدره من مؤرخى العلم ، وهم بحق مؤسسو العلم بمعناه الحديث ، وذلك لأنهم ساروا على هدى القرآن الكريم والسنة النبوية .

ويؤرخ للعلم الحديث منذ روجر بيكون وفرنسيس بيكون وديكارت ، حيث تأكدت قيمة التجربة العملية ، واستخدام المنطق لاستنباط الأسباب والعلل ، غير أن البداية الحقيقية للعلم الحديث - كما يعتقد المؤرخون الغربيون - فقد قدم لها جاليليو وأسسها اسحق نيوتن .

وقد قدم لنا اسحق نيوتن فى القرن السابع عشر مؤلفه الشهير[1] :

"البرنسيبيا" "Principia"

"أسس الفلسفة الطبيعية" "The Principles of National Phylosophy"

وشرح فى مؤلفه فلسفة النظرية الميكانيكية للكون المبنى على أسس رياضية ، فهو يقول فى مقدمة الكتاب :"إن هذا الجزء من الميكانيكا المبنى على الحواس الخمس والذى يستخدم الفن اليدوى (صناعة الأدوات) قد استثمره القدماء ، ولكننى هنا أعتبر الفلسفة وليس الفن ، ولا أكتب عن المصنوعات اليدوية (المصنوعة ميكانيكيا) ، بل عن القوى الطبيعية وبالذات تلك المرتبطة بالجاذبية والقصور والقوى المرنة ومقاومة الموائع وما شابه ، سواء كانت قوى تجاذب أو تنافر ، ولذا فأنا أقدم هذا العمل كأسس رياضية للفلسفة ، فمشاكل الفلسفة كلها تعتمد على ذلك من ظاهرة الحركة إلى بحث قوى الطبيعة ، ومن قوى الطبيعة لدراسة مختلف الظواهر" .

قدم نيوتن نظرياته فى الكتابين الأول والثانى ، أما فى الكتاب الثالث فقد طبق نيوتن نظرياته على العالم الواقعى .

وفى البرنسيبيا يعتمد نيوتن على مبدأ الفصل بين القوى المؤثرة على الجسم ، ومن شدة اقتناع نيوتن بحقيقة هذا الفصل فإنه كان أساساً لأهم قوانينه الثلاث وهو القانون الثانى، ويعتقد الكثيرون أن القانون الثانى لنيوتن هو أساس العلم الحديث .

صاغ نيوتن القانون الثانى بقوله :

"يتناسب التغير فى كمية الحركة مع القوة المؤثرة ، ويكون فى اتجاه الخط المستقيم الذى تؤثر فيه هذه القوة" .

ويهتم نيوتن فى النتيجة (I) بشرح مقصده بلفظة هذه القوة إذ يعنى الأثر المنفصل لقوة قد يتواجد معها عدة قوى مؤثرة ، وهذا الأساس هو الذى أدى إلى مبدأ متوازى أضلاع القوى ، الذى أدى بدوره بعد تعميمه إلى مبدأ مضلع القوى ، الذى تقوم عليه نسبة كبيرة من أسس علوم الميكانيكا والفيزياء والهندسة .

يقول نيوتن فى نتيجة (I) :

"إذا أثر على جسيم بقوتين فى نفس الوقت فإنه سيتحرك فى قطر متوازى الأضلاع فى نفس الوقت الذى تكون حركته تماماً على ضلعى المتوازى بهاتين القوتين منفصلتين" .

---

(1)"Sir Isaac Newton's Mathematical Principles of Natural Phylosophy and his System of the World" , Revised by Florian Cajori , University of California Press , Berkeley and Los Anglos , 1962.

هذا الفصل بين تأثيرات القوى كان الأساس للوصول إلى حساب المحصلة - أى نتيجة عمل القوتين معا - وهو ما عرف فيما بعد بالجمع الاتجاهى ، ويعرف نيوتن كمية الحركة على أنها حاصل ضرب الكتلة فى السرعة ، وهذا مفهوم معنوى قدمه نيوتن ، وأعطاه هذا الاسم ، وأقام علاقة التناسب بينه وبين القوة المؤثرة .

وهكذا نجد أن فكر نيوتن يتلخص فى فصل تأثيرات القوى ، وتمييز مسميات جديدة (كمية الحركة) لأن لها دوراً معنوياً فى علاقة الحركة بالقوة .

وقبل نيوتن بعده قرون قدم علماء المسلمين دراسات جادة فى حركة الأجسام ، فالحسن بن الهيثم[1] يشير إلى ما أسماه "قوة الحركة" وهو يناظر كمية الحركة عند نيوتن ، يقول ابن الهيثم :

".... والمتحرك إذا لقى فى حركته مانعاً يمانعه وكانت القوة المحركة له باقية فيه عند لقائه الممانع ، فإنه يرجع من (حيث) كان فى الجهة التى منها تحرك ... وتكون قوة حركته فى الرجوع بحسب قوة الحركة التى كان تحرك بها الأول وبحسب قوة الممانعة ... لأن الحركة المكتسبة إنما تكون بحسب مقدار المسافة وبحسب مقدار الثقل" ، والمتأمل لنص ابن الهيثم يلمح القانون الثانى لنيوتن .

ويقول أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادى فى مؤلفه المعتبر فى الحكمة : "وكل حركة ففى زمان لا محالة ، فالقوة الأشد تحرك أسرع وفى زمان أقصر ، فكلما اشتدت القوة ازدادت السرعة فقصر الزمان ، فإذا لم تتناه الشدة لم تتناه السرعة ، وبذلك تصير الحركة فى غير زمان أشد ، لأن سلب الزمان فى السرعة نهاية ما للشدة" ، وتلمح فى هذا النص أيضاً قانون نيوتن الثانى قبل أن يقدم بقرون .

ويقول الإمام فخر الدين الرازى فى كتاب "المباحث المشرقية فى علم الإلهيات والطبيعيات": "الحلقة التى يجذبا جاذبان متساويان حتى وقفت فى الوسط ، لاشك أن كل واحد منهما قد فعل فيها فعلا معوقاً بفعل الآخر ، ثم لاشك أن الذى فعله كل واحد منهما لو خلى عن المعارض لاقتضى احتذاب الحلقة إلى جانبه" .. نعم إنه مبدأ الفصل بين تأثيرات القوى المؤثرة الذى قدمه نيوتن فيما بعد .

وهذا هو الشيخ الرئيس ابن سينا يقول فى كتابه "الشفاء - الطبيعيات" : "... وليست المعاوقة للجسم بما هو جسم ، بل بمعنى فيه يطلب البقاء على حاله من المكان أو الوضع ... وهذا هو المبدأ الذى نحن فى بيانه" وقارن بين قول ابن سينا وقول نيوتن فى

---

(١) أحمد فؤاد باشا : "العلوم الكونية فى التراث الإسلامى" ، مجلة الأزهر ، شهر رمضان ، ١٤١١ هجرية .

القانون الأول : "يبقى الجسم على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ما لم يؤثر عليه مؤثر يغير من حالته ، وهذا المؤثر يسمى قوة" .

وانظر إلى قول الحسن بن أحمد الهمدانى : "فمن كان تحتها (أى تحت الأرض عند نصفها الأسفل) فهو فى الثبات فى قامته كمن فوقها ، ومسقطه وقدمه إلى سطحها الأسفل كمسقطه إلى سطحها الأعلى ، وكثبات قدمه عليه ، فهى بمنزلة حجر المغناطيس الذى تجذب قواه الحديد إلى كل جانب" .

ونحن فى آخر القرن العشرين لا نجد فى علم المقذوفات لدينا أكثر مما قاله هبة الله البغدادى[1] :

"... فكذلك الحجر المقذوف فيه ميل مقاوم للميل القاذف ، إلا أنه مقهور بقوة القاذف، ولأن القوة القاسرة عرضية فيه ، فهى تضعف لمقاومة هذه القوة والميل الطبيعى ولمقاومة المخروق ... فيكون الميل القاسر فى أوله على غاية القهر للميل الطبيعى ، ولا يزال يضعف ويبطئ الحركة ضعفاً بعد ضعف وبطئاً بعد بطء حتى يعجز عن مقاومة الميل الطبيعى ، فيغلب الميل الطبيعى فيحرك إلى جهته" .

وقد طالعنا التاريخ بكثير من علماء الصف الثانى الذين استندوا إلى قوانين نيوتن ليتجهوا إلى الإلحاد ، اعتقادا منهم بأن هذا الفهم وهذا التفسير للنظام الكونى يدحض الدين، لأنه يمكن الإنسان من التنبؤ بأحداث مستقبلية ثبت صحتها ، ومن هؤلاء العلماء لا بلاس الذى عاصر نابليون ، والذى كان مهتماً بالنظام الشمسى وكيف أن تصرفه هو نتيجة حتمية لقوانين نيوتن ، وقدم لا بلاس معادلته الشهيرة المسماة باسمه لدراسة كثير من الظواهر الفيزيقية ، ومن فلاسفة الإلحاد الفيلسوف الألمانى كانت الذى قال[2] : "إيتونى بالمادة وسوف أعلمكم كيف يخلق الكون منها!" ويقول العالم البيولوجى هيكل : "اننى استطيع خلق الإنسان لوتوفر الماء والمواد الكيماوية والغذاء" ، وقال الفيلسوف نيتشة "لقد مات الإله الآن!" .

إن كان هذا هو قول الملحدين الذين استندوا إلى فكر إسحق نيوتن فى الحادهم فماذا قال إسحق نيوتن نفسه صاحب البرنسيبيا . يقول إسحق نيوتن عن نفسه[3] :

---

(١) المرجع السابق .

(٢) وحيد الدين خان ، "الدين فى مواجهة العلم" ، المختار الإسلامى ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٧٤ .

(3) New Standard Encyclopedia, Standard Educational Corporation, Chicago,(1976).

"لقد كنت أشبه بالصبى الذى يلهو على شاطئ البحر أتسلى بين الحين والحين بالتقاط حصوة ناعمة أو صدفة جميلة عما حولها بينما محيط الحقيقة العظيم أمامى غامضاً" .

" I seem to have been only like a boy playing on the seashore and diverting my self in now and then finding a smoother pebble or a prettier shell than ordinary whilest the great ocean of truth lay all undiscovered before me" .

ونقرن ذلك بقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً﴾ (سورة الكهف - الآية ١٠٩) .

﴿ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ (سورة لقمان - الآية ٢٧) .

إنه تبيان الحقيقة من خالق الحقيقة معجزاً موضحاً عالياً على قول البشر المتفكرين ، فالبحر لن يكفى ولو جئنا بمثله مدداً ، وما أعظم أن يختار نيوتن نفس المثال حين من الله عليه بقبس من العلم ، لكأن الحقيقة تحثه على أن يسوق نفس المثال .

هذا هو إسحق نيوتن صاحب الجاذبية التى أعمت الصف الثانى من العلماء عن حقيقة الدين ، إنه يشعر بضآلته وضآلة علمه من الحقيقة العظيمة ، ويرى نفسه طفلاً يلهو ، وليس يافعاً متمكناً من الخوض فى المحيط واستكشافه ، وهو نفسه إسحق نيوتن الذى قال فى مقدمة مؤلفه أنه يحاول الاقتراب من الحقيقة ، وربما تكون نظرياته مقدمة إدراك أسلوب للفلسفة أكثر اقتراباً من الحقيقة .

ثم هو نفسه ، إسحق نيوتن كان خجولاً ، يخشى من نشر مؤلفه ، لولا أن شجعه صديقه إدموند هيلى الذى قدمه للجمعية الملكية فشجعه علماء عصره وحثوه على الاستمرار، وكان على راس مشجعيه روجر كوتس أستاذ الفلك والفلسفة التجريبية، وهو الذى نشر مؤلف نيوتن وقدم للبرنسيبيا، وهذا هو روجر كوتس يقول فى مقدمة البرنسيبيا :

" He must be blind who from the most wise and excellent contrivances of things cannot see the infinite wisdom and Goodness of their Almighty Creator and he must be mad and senseless who refuses to acknowledge them" .

"سيكون أعمى من يرى هذا التناسق البديع الحكيم ولا يرى الفضل والحكمة اللانهائية للخالق العظيم ، وسيكون مجنوناً عديم الإدراك من لا يعترف بقيمة هذا التناسق البديع" .

وكأن روجر كوتس كان يتنبأ بسلوك هؤلاء المارقين الذين حملوا مؤلفات نيوتن مالم يقصده نيوتن وأستاذه أنفسهم .

لقد ظن هؤلاء الملحدون أن هذه القوانين هى نهاية المطاف ومنتهى العلم ، فاستخدموا هذه القوانين غروراً ليتطاولوا على الدين وكأن العلم بالشئ هو كل شئ ، وليته علم بالشئ ، بل هو علم يسير بقدر ما يحمل المخيط من البحر .

ومن أدرى هؤلاء الملحدين أن هذا هو الحل النهائى الذى قدمه نيوتن ، ولقد مات كانت و لم يقدم لنا كونا جديداً من المادة الكثيرة حوله ، ورغم توفر الماء ، والمواد الكيميائية والغذاء فلم يستطع هيكل أن يخلق لنا ثمة إنسان .

يقول البرت آينشتين فى كتابه تطور علم الفيزياء(1) :

"إننا لا نستطيع أن نقرر أن هناك حلا نهائياً للطبيعة متاح لنا أن نصل إليه يوماً .

ويقول الإمام الغزالى : "اننا نعرف اليوم ما كنا نجهله بالأمس وهذا يعنى أننا فى كل يوم نثبت جهلنا ، ولذا فلن نصل للحقيقة النهائية أبداً" . نعم ... إن المعرفة النهائية للوجود شئ غير موجود .

والراسخون فى العلم يشعرون بضعف علمهم ، وضآلة فهمهم ويخشون ربهم . يقول الحق:

﴿إنما يخشى ا لله من عباده العلماء﴾ . (سورة فاطر - الآية ٢٨) .

﴿قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ . (سورة الإسراء - الآية ١٠٧) .

﴿وما يعلم تأويله إلا ا لله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ . (سورة آل عمران - الآية ٧) .

المقومات والمقاومات لعمل الخليفة : -

إذا استعرضنا تاريخ الانسان لوجدناه جهاداً لفهم حكمة ا لله فى خلقه ، واستخدام هذا الفهم لتسخير مفردات هذا الكون من جماد ونبات وحيوان لجعل حياته أكثر يسراً ، ولذا فهو يفهم كل يوم الجديد عن مخلوقات ا لله ويقيم ببحثه حضارته التى تزداد يوماً بعد يوم ، ومن الناحية الأخرى فهو يجاهد قوى الشر وزينته التى تصده عن طريق الهدى ، والتى تزين له استخدام عقله وعلمه بالمخلوقات لطريق الدمار وسفك الدماء .

---

(1) A.Einstein, L.jnfeld, "The Evalution of Physics", Simon and Schuster, New York,1960 .

وهكذا اكتملت مقومات الخليفة بما حباه الله من نعمة العقل المميز ، والذى فضله الله بالعلم الكاشف الباحث ، واكتملت له المقومات لخلافته من إبليس وذريته ، الذين يقاومون ضميره، وحكمة استخدام علمه ، فصار على الإنسان أن يجاهد الهوى ، ويجاهد نفسه وربه بأن يسعى للخير الذى جبل عليه ، وبقدرتنا المحدودة فى فهم قبس من حكمة الله نقول أن الإنسان اكتمل له الفعل ورد الفعل من مقومات ومقاومات فصار عليه أن يجد طريقاً بما يتغلب من أى منهما عليه .

نعم ... الخليفة لابد أن يمثل أمام من استخلفه ، ليرى كيف تصرف فيما استخلف فيه ، ولذا فهو لابد أن يقاوم اغراءات الانحراف بالخلافة نحو الشر والبهتان ، والخليفة لابد أن يكون له صلاحيات تمكنه من إقامة الخلافة ،فهو يملك الفعل القادر على الخلافة ، وهو يواجه رد الفعل المقاوم للخلافة ، ولاشك أن عمل الانسان فى الأرض لا يتضح ، ولا يكون له معنى بدون مقاومات يتغلب عليها ، فوجود رد الفعل من لوازم الخلافة ، ولعلنا نستحضر هنا فكر علماء الميكانيكا الذين يعتبرون أن الشغل هو حركة ضد مقاومة ، فلكى يكون هناك إنجاز فلابد أن تكون هناك مقاومة .

ولقد أسكن الله آدم وزوجته الجنة ، وهو الذى خلق ليكون خليفة فى الأرض ، إنها مشيئة الله أن يعيش آدم فى الجنة قبل أن يهبط إلى الأرض بعد أن أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ، فآدم وحواء مقدر لهما أن يتركا الجنة للأرض التى هى موضع استخلافهما الذى ذكره الحق للملائكة قبل خلق آدم ، فهبط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض لخطئهما المقدر فى علم الله ، فأحسوا بالمسئولية الملقاة عليهم .

وكما قدمنا فإننا نفهم سكنى آدم وزوجته الجنة قبل أن يهبطا إلى الأرض كاستكمال لتعليمهما وتسليحهما بسلاح العقل والعلم ، فمن رأى الجنة وسكنها وعاش فيها لابد أن يدرك العظمة والحكمة والنعيم الذى خلقه الله تتويجاً لعباده المخلصين ، ولذا فإن هذه السكنى صارت فى روع آدم وزجه حتى إذا هبطا إلى الأرض أدركا الفرق العظيم وميزا الاختلاف الجسيم ، فصارت الجنة نبراساً فى روعهما وروع ذريتهما ، يرون بها الأرض دانية سفلى ، يسعون فيها لجعلها أكثر يسراً وأعظم بهاءً ، وأين الأرض مهما سعى عقل الانسان فيها من جنة الخلد ، فأصبح الإنسان مجاهداً فى فهم الوجود مسخراً لها ، وماذا نظن بمن تعلم الأسماء وسكن الجنة أن يفعل عندما يهبط إلى الأرض ! ، لابد وأن يقيم عليها حضارة تليق بخليفة الخالق ، ولن يقف الجهاد ولن يكتمل عمران الأرض وسعى الانسان فيها ، فأين هذا من جنة الخلد التى أعدت للمتقين ؟، وبعبارتنا التى نفهمها على قدرنا نقول أن سكنى الجنة وكأنه الجزء العملى الذى يتدرب فيه آدم على قمة النعيم ، ويدرك قمة الاكتمال ، فيصبح كل ما يقيمه فى الأرض لا يقنعه ، فالإنسان لن يتوقف عن

تسخيرمفردات الطبيعة حوله ، لأن روعه الذى ورثه عن آدم وحواء عليهما السلام يحمل عبق الجنة الذى يعلو على كل عبق . نعم لقد صار علمنا بالأرض وحضارتنا عليها عملاً لا ينتهى ، وصرنا نقول بكل الحكمة "كلما علمنا كلما جهلنا" فالعلم معين يزيد كلما نهلت منه وكلما علمت الجديد كلما أدركت أنك بحاجة لأن تعلم أكثر مما علمت ، ولا أحسب عالماً حصيفاً إلاويقول "إن معرفة كاملة للوجود شئ غير موجود" ، فالكون كما قدمنا وضع الله فيه مقومات استخلاف الانسان ليكون قادراً على تسخيره وتطويعه بلا نهاية .

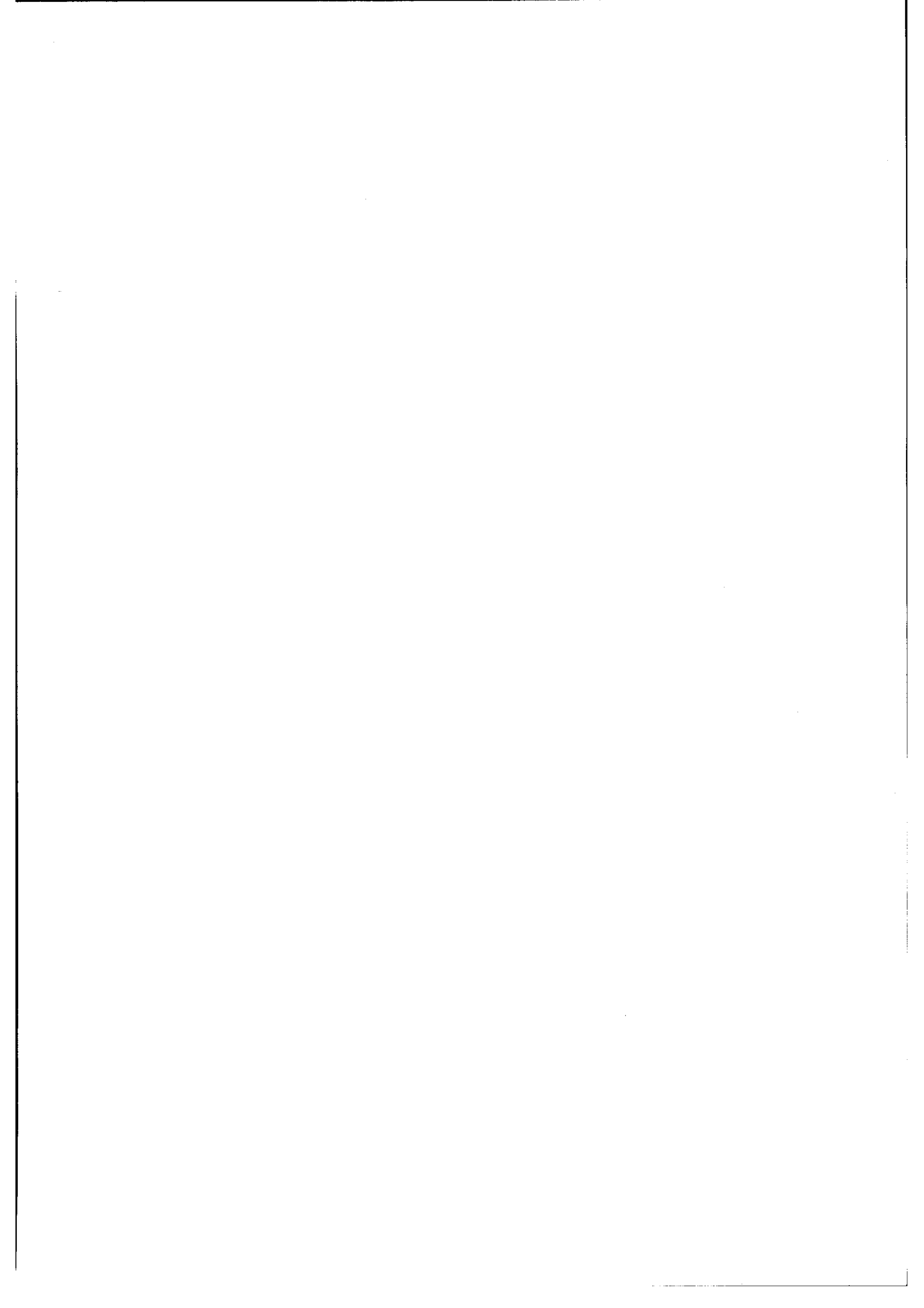
ذلك جانب من محاولة فهم سكنى آدم وحواء للجنة ، ويمكننا إدراك جانب آخر في هذه السكنى ، لقد وسوس الشيطان لهما فأزلهما عما كانا فيه ، تبياناً لدور إبليس ، وتحذيراً منه منذ البداية، حتى يدرك الإنسان عظم المسئولية وجسامة الأمانة ، وبعد أن أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، نعم لقد أدركا الجنس والخجل بعد هذه الخطيئة ، وصارا بالشعور متميزين لرجل وامرأة ، وأصبح الجنس وجوداً فى حياتهما بعد الخطيئة ، سبحان الله .

لقد قدر الله هبوطهما إلى الأرض ، وقدر لهما الذرية والتكاثر وخلافة الأرض لزمن كبير بمقياس الانسان ، فأنىَّ لإنسان مفرد أن يسعي فى أرض الله خليفة له مقيما عليهاالعمران والحضارةمميزاً للخير والشر ، عارفاً بالله عابدا له ، لابد وأن يتكاثر هذا الإنسان ليحمل أبناءه من بعده مسئوليته ، ويدرك رسالته لأن خلافة الله عظيمة ، وقد صار آدم وحواء يشعران بالميل للتكاثر ، وهو ما قد لهما حتى يستخلفا الله فى الأرض ، وصار التكاثر مرتبطاً بالخجل.

وبإدراكنا وفهمنا المحدود نقول أن قصة آدم عليه السلام تمثل قصة الإنسان على مدى عمره عموماً ، ففترة سكنى آدم وحواء للجنة تمثل فترة الطفولة البريئة للإنسان ، يعيشها وكأنه فى الجنة ، ومن يموت فيها يدخل الجنة ، لأنه فى فترة الفطرة ، وبلوغ الإنسان يناظر الأكل من الشجرة وظهور السوءات ، وعندها يتحمل الإنسان الأمانة ، ويدرك قوى الشر والخير ، ويشعر بالمسئولية ، ويهبط إلى الأرض حيث الواقع والنفوس والشعور والرغبات التى تصبح ليست رغبات جنسية فقط بل تعدو ذلك إلى رغبات السلطة والسيطرة والمال .

هكذا قُدِّر لآدم أن يهبط للأرض بعد أن تعلم الأسماء وبعد أن سكن الجنة ووعى النعيم الالهى المترف ، وأيضاً بعد الخطيئة التى وعى منها المسئولية وأدرك منها قوى الشر التى تتربص به ، وصارت أعماقه تهفو للخير حتى يظفر بالجنة التى وعاها وأدرك نعيمها .

وعلى الأرض تناسل آدم وبدأ بنوه جهادهم فى تطويع الطبيعة لجعل حياتهم أكثر يسراً ، فكانت الأسماء وسيلتهم الطيعة التى وهبها لهم التعليم الربانى العظيم .



الفصل الرابع

كلها

يقرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء كلها ، أى أن عِلْم آدم بالأسماء كامل كما علمه الحق سبحانه وتعالى ، وهذا الاكتمال فى علم الأسماء يجعلنا نطرح بعض النقاط الفكرية ، نوردها فيما يلى .

كلها فى مقدرة إطلاق الأسماء :

ليست الأسماء فى التعليم الإلهى استظهاراً لألفاظ بذاتها بلغة بعينها ، ولكنه تعليم لمفهوم الأسماء ، وتمكين لقدرة إطلاق الأسماء ، فالإنسان بكل لغاته يطلق الأسماء ، ويتعامل بها ، ويسعى بها حديثاً وتمييزاً وإدراكاً ، ففى كل اللغات توجد الأسماء كوسيلة سهلة للتفاهم بين الناس ، وكأساس لإدراك مخلوقات الله من حيوان ونبات وجماد ، بل ومعان وأفكار ، وهذه الوسيلة متاحة لكل الناس بمختلف ثقافاتهم وعلمهم ولغاتهم ولكناتهم ، فالله قد حبا الانسان بقدرة إطلاق الأسماء دائماً كلما ظهر جديد فى عالمه يحتاج لإدراكه والتعامل معه .

وكم ظهرت من الأسماء فى مختلف المجالات ، تميز مدركات جديدة من أجهزة علمية ومناطق جغرافية ومعان فكرية وغيرها ، فعرف عصرنا "الالكترون" الذى أطلقه طومسون على وحدة الكهرباء ، وعرف عصرنا "أمريكا" القارة الجديدة التى اكتشفها امريكوفسبوتشى وسماها على اسمه، وعرف عصرنا "الصاروخ" و "الكمبيوتر" ، وعرف أيضاً "اللاشعور" فى الإنسان . نعم لقد مَنَّ الله على الانسان بقدرة إطلاق الأسماء واصطلاحها ، بل وتعديلها وتصحيحها ، يطلقها على ما يجد عليه من مادة وفكر وأشخاص واختراعات .

وبهذا يكون الاكتمال فىعلم الأسماء هو قدرة اطلاقها والتعامل بها دوماً فى كل لغة وزمان ، لكأن الإنسان قد أعطى تفويضاً أو صلاحية للتعامل بالأسماء ، ليدرك عالم المعرفة دائماً ، فكلها له كلما احتاجها ، وقصد قيمتها ، وسعى بها تمييزاً وإدراكاً لمخلوقات الله . وكما قدمنا فإن آدم عندما خلقت حواء من ضلعه سأله الملائكة ليروا مبلغ علمه عن اسمها فقال : حواء ؟ لأنها خلقت من شئ حى ، فهو الذى سماها وعلل سبب تسميتها .

كلها فى تعلمها تماماً :

لقد تعلمها كلّها تماماً ، واستظهرها كلّها ، وكأن الإنسان يعرف الأسماء أصلاً وكلما عَنَّ له جديد فى مخلوقات الله استخرج اسمه الثابت فىعلم الله ، من علمه الكامن

الذى حباه به الحق سبحانه وتعالى ، فكأن الإنسان يعلم كل الأسمـاء ، ولكنه يعيش عمره كله في الدنيا ليستخدم بعضاً من هذه الأسماء فـى حياتـه ، وربما يكون هوالـذى يقد إسما جديداً لشئ جديد ، وهو فى الحقيقة يجتر اسمه بما قدر الله لهذا الإسم فى علمه ، فيثبت الاسم الصحيح في عرف الانسان ، المقدر فى علم الله ، ليستخدمه الناس ، فَهُمْ قـد تعلمـوه تماماً من عند الله ، وقد يتعثر الناس فى اطلاق الاسم ، فيعدلوه ويصححوه ، وقد ينشأ الاسم فى حياة الناس دون أن يحددوا له ميلاداً محدداً ، ولكنه فى النهاية يثبت على ما قـدر الله لـه وما عَلّم به ، إسماً نافعاً يتضافر مع غيره من الأسماء ليعبر عن مخلوقات الله .

كلها ليكون حساب اليوم الآخر عادلاً :

لقد تعلم آدم الأسماء كلها ، إنه التعليم الكامل منة من الله وتفضيـل للإنسـان الـذى كرمه ربه ، فألقى فى روع آدم علم الأسماء كلها ، وهنا يمكننا أن نتبصر ، بفكرنا المحـدود ، فى حكمة الله الذى جعل علم الأسماء كاملاً غير منقوص ، إعداداً لخليفته فى الأرض ، ذلك الخليفة الذى سيسعى فى أرض الله عاملا متصرفـا ، لابـد وأن يكـون مدربـا متعلمـا مهيأً لطبيعة المهمة المنوطة به

وضحنا من قبل أن الأسماء هى المدخل إلى معرفة الوجود ، والتعليم الكـامل للأسماء يعنى اكتمال الإدراك للوجود ، وعلى هذا فالإنسان متوافق فى داخلـه مـن حقيقـة الوجـود كله حوله ، وإن هو إلايستخرج جزءًا من هذه المعرفة ليسعى بها فى حياتـه ، ولكـن داخلـه ملئ بالحقيقة كاملة ، وموقفه من أمور الدنيـا يحكمـه إدراك كـامل لمفـردات الخليقـة ، فهـو متوافق مع الوجود كله ، مسلح له معد لمسائله ، يتخذ قراره فى الخير والشـر بعمـق الإدارك للعلم كله ، ليس مستظهراً له بدقائقة ، ولكنه مدرك له بكليته وثوابته ، فصار ضميره كاملاً وقراره خالداً وموقفه اختيار كامل ، ومن ثم فحسابه حق وخلود جزائه حق .

الحمد لله العادل ، الذى مَنَّ على آدم بعلم الأسماء كـاملاً ، فصـار سعيه فـى الأرض على درب الحقيقة ، مميزاً للخير والشر بـلا لبس أو غمـوض ، لأن مفـردات الوجـود كلها عنده يسيرة كما علمه علام الغيوب .

نعم اكتمال المعرفة فضل كبير ، ولنضرب لذلك مثلاً بسيطاً ،هب طفلاً صغـيراً قـد استظهر حـروف اللغـة وبعـض كلماتهـا البسيطة ، وأردنـا أن نقدمـه لامتحـان نختبر فيـه استيعابه، ولكن هذا الطفل لايدرك معنى الامتحان ولا مغزاة ، لاشـك أن هـذا الطفـل لـن يميز معنى الغش فى الامتحان ؛ بالنقل من الكتاب أو سؤال القائمين على الامتحان ، لن يميز أن الغش غير مطلوب وأنه رذيلة ، وقد يدهش إذا عوقـب يـافع غـش فـى الامتحـان ، لأنـه لايدرك حدود المسألة التى يعالجها ، ومن ثم فلن يكون ضمـيره متعضيـاً يافعـاً كـامل العلـم بمفردات الموقف ليتخذ تصرفاً مسئولاً واعياً .

ونحن ولاشك ، بنو الانسان ندرك الخير والشر بوضوح ، فالإنسان العاقل البالغ يدرك الرذيلة والفضيلة وإن كان جاهلاً أو فقيراً ، أبيضاً أو أسوداً ، أيًا كان ، فى روعه يكتمل فكر الوجود وحقيقته ، ولذا فهومتوافق مع الواقع الفسيح من حوله ، ولذا فقد صار خليفة لله فى الأرض ، فهو يملك كل الأسماء ، أى يدرك كل مفردات الوجود ، ولذا فإن موقعة من أمور الدنيا موقف نهائى يدل على مسلكه ، وعلى اختياره الحر الكامل ، وقراره الذى ارتضاه ، وهو يعرف مفردات المسألة كاملة فاستحق بذ لك الخلافة ، وصار بذلك مثلاً للحساب ، فيجازى إن كان مَن الصالحين ، ويعاقب إن كان من الضالين .

يقول الحق فى سورة غافر :

﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن ا لله سريع الحساب﴾ (سورة غافر - الآية ١٧) .

ويقول فى سورة التحريم :

﴿يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ (سورة التحريم- الآية ٧) .

وا لله وملائكته وأولو العلم يشهدون له بالعدل : **﴿شَهِدَ ا لله أنه لا اله إلاهو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لاإله إلاهو العزيز الحكيم﴾** (سورة آل عمران - الآية ١٨) .

وبلغة عصرنا نقول أن تعلم آدم للأسماء كلها صار فى وعية علماً كامنا كاملاً ، يدرك الحقيقة برمتها ، ولكنه أثناء حياة الانسان يدرك بوعيه قدراً من هذه الأسماء ، ليتعامل بها ويسعى بها ، وربما يوفقه ا لله لأن يكتشف اسماً جديداً لحقيقة فى الوجود ، وإن هى إلا منّة من ا لله ليستخرج من وعيه هذا المفهوم على هيئة اسم نافع ، وكأنه انتقال من اللاوعى للوعى ، فأعماق الإنسان العقلانية تحمل الحقيقة كلها ، ولكن تعامله العملى الواعى مع الوجود يستخدم جزءاً يسيراً من هذا العلم الإلهى العظيم .

ولذلك فالإنسان متوافق مع الوجود مهيؤ من داخله للتجاوب معه باتساق ، بل هو ملىء بالحقيقة الكاملة التى تجعل تناوله لما يطرح عليه تناولاً فى صلب الحقيقة ومسارها ، ولذا فإن الإنسان فى مواجهته لهذاالوجود يسعى بالإسماء مطوراً له متطوراً فى إدراكه عنه ، ففى كل يوم يعدل فكره وادراكه عن حقيقة الوجود ، ويرتقى بعلمه عنه ، لأن الوسيلة التى يملكها كاملة تحيط بأسماء الحقيقة ، فصار إدراكه المنبثق عن تفكيره وممارساته يتحرك على درب الحقيقة متتبعا لها .

ولذا فمن الطبيعى أن نعدل اليوم إدراكنا الذى وعيناه بالأمس ، ونحن نستخرج من أعماقنا الانسانية التى تحمل الأسماء كلها فى كل يوم أسماء جديدة ، بل نحن نملك اختبار

الأسماء ومحاولة فكها لأسماء تفصيلية ، فيخرج علينا من يدرس تركيب الذرة ليدرك وجود النواة ، بل ومن يدرك تركيب النواة من بروتونات ونيوترونات .

وعلى هذا يكون ادراكنا الكامل للأسماء أساس لتمكننا الكامل من تطوير إدراكنا للوجود ، وقدرتنا على تعديل مسار فكرنا على درب الحقيقة التى خلقها ا لله ، وما أحرى أن يكون خليفة الخالق مهيؤ لأن يتعامل مع الوجود الذى خلقه ا لله بما يكفل له أن يكون على قدر الخليفة ادراكاً وتطوراً وتعديلاً لما يصنعه .

فتعلم الأسماء الكامل يعنى التهيؤ الكامل للسعى على طول الزمن الكامل (مهما امتد) لإدراك الوجود ، والتعمق فى فهمه دائماً ، حتى يتسنى إقامة الحضارة التى تليق بالخلافة ، وتعلم الأسماء الكامل يعنى إكتمال الإدراك وتوحد الضمير لكل البشر ، فالمفردات كلها كامنة فى الانسان تعليماً خالصاً من ا لله ، ولذا فالتصرف فى الأشياء والمعانى هو تصرف موقف يحكمه الاتساق الكامل مع مخلوقات ا لله ، فصار الضمير حاضراً واعياً مدركاً للخير والشر منبثق من اكتمال العلم الكامن ، فأنت إن لم تعلم ما هو الإمتحان فلن تدرك خطيئة الغش فى الامتحان ، وإن لم تدرك تماماً ما هو القضاء فلن تدرك خطيئة شهادة الزور ، ولذا فالإنسان بكل أجناسه ولغاته يدرك الخير والشر ويميزه لأن روعه ملئ بالادراك الكامل ، وما أعدل الخالق العظيم .

ولعلنا ؛ بقدرتنا المحدودة على التفكير ؛ نقول أن الإنسان فاق الوجود الدنيوى ، لأن ا لله قَدَّر لآدم وحواء أن يسكنا الجنة لفترة ، فاطلعا على ما هو خير من الدنيا وما فيها ، لأن الناموس الذى تمضى عليه الجنة خير وأفضل من ناموس الأرض ، الذى امتزج فيه الخير والشر ، ولهذا فمن رحمة ا لله صار الأنسان مهيأ لأن يجنح للخير بفطرته ، ولاسيما وأنه أدرك أن ترك الجنة مقرون بالخطيئة وعدم الطاعة لله عز وجل .

لكأن الإنسان ، فى المثل البسيط الذى نضر به ، دخل إلى الامتحان فى الأرض وهو متعلم للأسماء كلها ، بل ومتفوق لدخوله الجنة قبل الأرض ، فأحس بعبق الخير ولمس سمو الفضيلة ، فصار جانحاً للخير بفطرته ، ومن مرق عن ذلك قاصداً ، استحق عذاب اليوم الآخر ، لأنه اتخذ قرار جحود ، وجنح عن الحق الساطع شراً وضلالاً وبهتاناً .

وكما قدمنا فى الفصل الثالث فإن المعرفة لها مستويات ، مستوى المعرفة الوصفية ، تليها المعرفة المنطقية التى تحكم تصرف المادة ، ثم حكمة استخدام المعرفة لتحقيق الضمير الإنسانى ، ولكى يدرك الإنسان كل هذه المستويات فلابد أن يتعلم الأسماء كلها ، كاملة غير منقوصة ، حتى يمكنه أن يتعمق فى الإدراك ليحقق الضمير ، فإسم واحد فى المعرفة المنطقية يعطى إدراكاً لتصرف أسماء عديدة فى المعرفة الوصفية ، ولذا فإذا أردنا أن نتحرك رأسياً فى أسماء المعرفة ، فعلينا أن ندرك المتسع الأفقى كله عند كل ارتفاع ، وهذا التدرج

المتعالى للمعرفة يضع الحكمة وتحقيق الضمير فى قمة الهرم الفكرى ، ولذا فلكى نحقق الضمير علينا أن ندرك مفردات المعرفة كلها ، وإلا فلن يستقر الضمير ولن تكتمل أسباب الحكمة ، ومن يقبل ذلك لخليفة الحق سبحانه وتعالى؟.

وانظر إلى قول الحق يعلمنا مستويات المعرفة : **﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾** - (سورة يوسف - الآية ٧٦) .

ويقول : **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾** (سورة المجادلة - الآية ١١) .

ومن عظمة الأسماء أنها تعبر عن مستويات المعرفة كلها ، وتعالج الفكر كاملاً ، ومن نعم الله علينا أن مَنَّ بها على آدم فعلمها له كلها .

كلها فى تنوع قدرات وعلم البشر! : -

وننظر إلى تعلم الأسماء كلها بمنظور آخر .

الأسماء ألفاظ بسيطة تماما ، وتجعلنا نستحضر شخص المسمى ، أو معناه فى حالة الأسماء المعنوية ، بكل ما يحمل شخص المسمى من مفردات لانهائية ، فهذا الإسم اليسير أن هو إلا مفتاح نفتح به معين المعرفة ، ولكن كم من الأسماء نعرف ؟ ، نعم نعرف الأسماء كلها فى وجداننا ، ولكننا نستحضر جزءاً من علمنا بالأسماء أثناء حياتنا ، ومن الصعب أن نحصى كل الأسماء المعروفة للإنسان العادى ومن الممكن أن يكون هناك إسم لشىء معنوى صعب فهمه ولكنة بمرور الزمن وتعامل الناس معه يصبح يسيرا .

فلوا عتبرنا أن المجهود العقلى للإسم صغير وعدد الأسماء كبير، بمعنى أن كل إسم يسير فى تعلمه وقد حبانا الحق سبحانه وتعالى بالأسماء كلها ، فيكون المجهود العقلى لتعلم الأسماء كلها يناظر حاصل ضرب الصفر فى ما لانهاية ويعبر الصفر عن المجهود اليسير للإسم الواحد وتعبر مالانهاية على تعلم الأسماء كلها ، وفى علم الرياضيات فإن حاصل ضرب صفر فى مالانهاية يساوى كمية غير معينة ، فالنتيجة طبقاً لعلم الرياضيات مقدار غير محدد، مختلف طبقا لكل حالة على حدة .

نعم .. مقدار غير محدد ، يختلف باختلاف البشر ، يختلف بمقدار ما يمن به الحق من علم وفهم لأبناء آدم ، ولكنهم كلهم قد تعلموا الأسماء كلها ! ، وما أبدع التعليم الربانى العظيم .

أنت لا تستطيع أن تحصى كل ماتعرف ، وتشعر بأن عقلك لا يضيق بما تعرف ، وفى داخلك شعور بلانهائية ماتعرف ، وامتداد عقلك بما يتسق مع الوجود حولك ، تلك منة من الله لبساطة الأسماء وعظم عددها وعدم تحديد مقدار الجهد العقلى فيها مجتمعة ،

فهى ممكنة وسهلة ولانهائية ، ومقدار استحضارك لها غير محدد ، بل هو يختلف بينك وبين أبناء جنسك ، أى أن مقدار العلم بالوجود يختلف بين البشر ، سبحان الله ، إن هذا هو قمة التناسق بين الانسان والوجود ، أن ياخذ كل إنسان دوره ، وأن يستحضر علمه بالوجود بمقدار ما قدر الله له من علم الأسماء التى يعرفها كلها .

فكل منا حباه الله بقدر من العلم غير محدد لنا ، ولكنه محدد فى علم الله ، لكننا قد تعلمنا الأسماء كلها ، وصرنا جميعا مدركين لمسلمات الوجود ، واكتمل لنا تمييز الخبيث من الطيب ، فصرنا مكلفين ومحاسبين ، لكننا بالقطع نختلف فى قدر ما حبانا الحق من العلم والحكمة، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿**يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب**﴾ (سورة البقرة الآية : ٢٦٩) .

وانظر إلى قوله أيضا : ﴿**فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما**﴾ (سورة طه الآية : ١١٤) .

وهولاء هم بنو اسرائيل عندما بعث الله لهم طالوت ملكا : ﴿**قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم**﴾ (سورة البقرة الآية : ٢٤٧) فالله يزيد من يشاء من العلم ويؤتى الحكمه من يشاء فهو العليم الخبير بل واين هذا العلم الذى حبانا به العليم من علمه اللدنى ، يقول الحق : ﴿**وما أوتيتم من العلم الإقليلا**﴾ (سورة الإسراء الآية : ٨٥) .

﴿**وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم**﴾ (سورة الأنعام الآية : ١٠١) .

﴿**ألا إنه بكل شىء محيط**﴾ (سورة فصلت الآية : ٥٤) .

﴿**ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطا**﴾ (سورة النساء: ١٢٦) .

خاتمة

قدمنا فى الصفحات السابقة قصة خلق آدم علية السلام واستخلافه فى الأرض ، ليعبد الله ويسعى بالعقل والضمير مجاهدا ليقيم الحضارة ، ويميز الخير والشر بما فطره الله على الحق والخير والعدل والسلام ، ولكى يتمكن من خلافة الله فى الأرض فقد حباه الله بعلم الأسماء فعلمها له كلها ، كاملة غير منقوصة ، وبفضل هذا التعليم الربانى العظيم ، استحق الخلافة ، وتسلح لمواجهة مسئولياتها .

وهكذا قدر لآدم أن يكون خليفة لله فى الأرض ولذا فقد سلحه الله بتعلم الأسماء لتمكنه من التمييز والإدراك ، والتدخل فى مخلوقات الله مسخرا لها متميزا عليها بنعمة العقل والتفكير ، وصار إبليس له عدوا يزين له طريق الشر حتى يصده عن رسالته فى الأرض ، وهو يكافح كى يقيم الحضارة والعدل والسلام .

ولقد حاولنا فى الفصل الثانى الأقتراب من مفهوم الأسماء ، ووجدنا أنها كالشفرة التى تدل على شيء كبير ولكن بإشارة بسيطة يسيرة ، وانتهينا إلى أننا عبرنا عن الاسم بأنه تلخيص لما لانهاية من المعلومات إلى أقل حيز فكرى بسيط ، أو بعبارة أخرى أن الأسماء هى احتواء مالانهاية داخل صفر ، وذكرنا أن الإسم كأنه هذا الصندوق الأسود الذى يحتوى الحقيقة الغامضة للوجود.

وتبين لنا أن تعلم الأسماء يستتبع إدراك الانفصال فى الطبيعة وأنها مقسمة إلى مفردات ، وليست كلاً كاملا ، ولذا أمكننا تمييز مكوناتها كل على حدة ، فاستطعنا استخدامها وتسخيرها، ورأينا أن إدراك الانفصال يعنى ادراك الاتصال ، فامكن الانسان أن يجمع مكونات الوجود لخدمة حياتة وتيسيرها ، وكان هذا أعظم ما أثر فى حياة الانسان وتفاعله مع الطبيعة ، وذلك أننا وجدنا أن فعل الانسان على الأرض إن هو إلاإعادة تنظيم المفردات ، لانتاج خواص جديدة مختلفة عن الأرض الغفلة ، فأمكن الانسان أن يستخلص الفلزات من الخام الترابى وأن يصنع الزجاج من السليكات والألومنيا وهى الرمل والحجر الجيرى ، واستطاع أن يصنع البلاستيك وأن يستخلص البنزين من البترول وقس على ذلك الكثير .

وهكذا تحرك الإنسان فى عالم المعرفة بما حباه الله من علم الأسماء ، فاستطاع أن يدرك العلم الوصفى والعلم المنطقى والحكمة والضمير ، وصار متحركا للخير والفضل والمعنى ، فاستطاع أن يقسم العلم الفلسفى إلى علوم مختلفة حتى يتمكن من كل واحد منها على حدة ، فابتكر علوم الجغرافيا والفيزيقا والكيمياء وعلم النفس وغيرها .

ولاشك أن التعليم الربانى العظيم تعليم للمفهوم وليس تحفيظا لأسماء بعينها ، بل هو تعليم لقدرة إطلاق الأسماء ، ومفهوم الادراك عن طريق الأسماء ، فصار الإنسان قادرا على إطلاقها دوما كلما احتاجها ، صارت وسيلة طَيِعَّة له تمكنه من الحركة فى عالم المعرفة الفسيح .

ونحن نفسر الأسماء ، وندرك الجديد عن الأسماء بأسماء أخرى ، ثم إننا نسعى من الأسماء وبالأسماء ونحو الأسماء ، فمثلا نسعى من أسماء الخشب والمسمار والغراء وبأسماء القطع والوصل والتثبيت إلى أسماء الباب والشباك وغيرها ، وهكذا صار الإنسان مجددا ومضفيا ومغيرا فى أرض الله .

وقد وجدنا أن تعلم الأسماء كان هو الأساس الذى قام عليه العلم البشرى ، وذلك أن الإنسان أستطاع أن يدرك مبدأ التحليل ، وهو أسلوب يبسط المشكلة إلى عدة مشاكل صغيرة منفصلة ، يمكن حل كل منها على حدة ، ثم نقوم بتجميع هذه الجزئيات معا حتى يكتمل الحل المتكامل ، وهذا الأسلوب قد اندرج على كثير من العلوم التجريبية وعلوم الرياضيات ولاسيما علمى التفاضل والتكامل حيث نجد مبدأ فصل المتغيرات "Separation of Variables" ، ونجد مبدأ الفصل فى علوم الميكانيكا ، حيث يمكن فصل تأثير القوى على الجسم ، والحصول على التأثير الكلى للقوى عن طريق تجميع التأثيرات المختلفة لهذه القوى فيما نسميه "المحصلة" ، فتصبح المحصلة تعبيراً كاملاً عن كل القوى الموجودة فيما يخص تأثيراتها الميكانيكية .

نعم .. إن المبادىء الأساسية التى قام عليها العلم البشرى ، استقت جذورها من الأسماء ، بل إن الإنسان قد وضع مايسمى بالتعريف كأساس لتعريف الأساسيات فى العلوم المختلفة ، وهذا التعريف إن هو إلا المحاكاة الإنسانية للأسماء ، فالتعريف حدد المفردات طبقا لآخر معلوماتنا عنها حتى تتوحد اللغة العلمية ويمكن التعبير المباشر الواضح بدون لبس .

وكما قدمنا فإن إدراك الطبيعة يتكون من حلقة مغلقة من الأسماء ، نتحرك فيها بين الأسماء لتفسر الأسماء بعضها ، وتتشابك الأسماء بشكل محكم حتى أننا إذا أردنا أن نعرف اسما واحداً علينا أن نعرف كل الأسماء ، ولا يكتمل علمنا باسم واحد إلاذا علمنا كل أسماء هذا الوجود . نعم كلها .

ولقد علمها الحق سبحانه وتعالى لآدم كلها ، نعم .. اكتمل لبنى آدم علم الوجود فصار الإنسان متسقا مع الوجود الخارجى متناغما معه ، كل مايراه ويكتشفه إن هو إلا استحضار لما فى داخله من علم الأسماء ، فهو كمن يراجع المسألة التى استذكرها مسبقاً ، ولذا فهو متمكن فى اكتشافه للوجود ، وهو مدرك لحقيقة الوجود الكاملة ولذا فقد صار ضميره كاملا وتمييزه للخير والشر واضحا جليا لأن تفاصيل الوجود كلها كامنة فى داخله ،

فصار أهلا لاستخلافه فى الأرض وصار قراره بين الخير والشر قراراً خالداً ، يستحق عليه حساباً خالداً .

تعلمها كلها ، فصار قادرا على التعامل مع الطبيعة دائما ، وصار مطورا لمفردات الطبيعة دائما ، وصار مميزا للخير والشر مكتمل الضمير ساعيا بالحكمة ، ثم صار بنو آدم مختلفين عن بعضهم بمقدار ماحباهم الحق سبحانه وتعالى من العلم ، وكما قدمنا فى الفصل الرابع فإن عدد الأسماء لايمكننا إحصاؤه ولذا فلا نملك إلا أن نعتبره ما لا نهاية من الأسماء ، ثم أن المجهود الفكرى فى كل اسم يسير حتى يمكن اعتباره مقتربا من الصفر ، ولذا فإن حجم الفكر العلمى فى كل عقل يساوى حاصل ضرب مالانهاية فى الصفر ، وهذا المقدار فى علم الرياضيات هو كمية غير معينة، كمية غير معينة فى علمنا ولكنها معينة فى علم الله، فهى كمية غير معينة بمعنى اختلافها حسب كل حالة ، وعلى هذا الشكل هذا شكل إنسان قد مَنَّ الله عليه بنصيبه من العلم الذى يختلف عن غيره من البشر ولا يستطيع الإنسان تحديد مبلغ علمه بالقياس ولكن مبلغ علمه محدد فى علم الله، ولكن كل البشر مشتركون فى تعلم الأسماء كلها والسعى بها وادراك الحكمة والضمير ، ولذا فكل البشر عالمهم وجاهلهم ، كبيرهم وصغيرهم ، أبيضهم واسودهم ، كلهم قدموه من أعمال .

نعم .. تعلم آدم الأسماء كلها ، فصار خليفة مسؤلا ممتثلا للحساب ، ولكن علمه محدود، وإدراكه عن الوجود نفسه محدود ، وهو وبنوه لاشك سيكدحون فى أرض الله ، وسيجاهدون الحياة الدنيا .

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾

(سورة آل عمران : الآية ٨).

